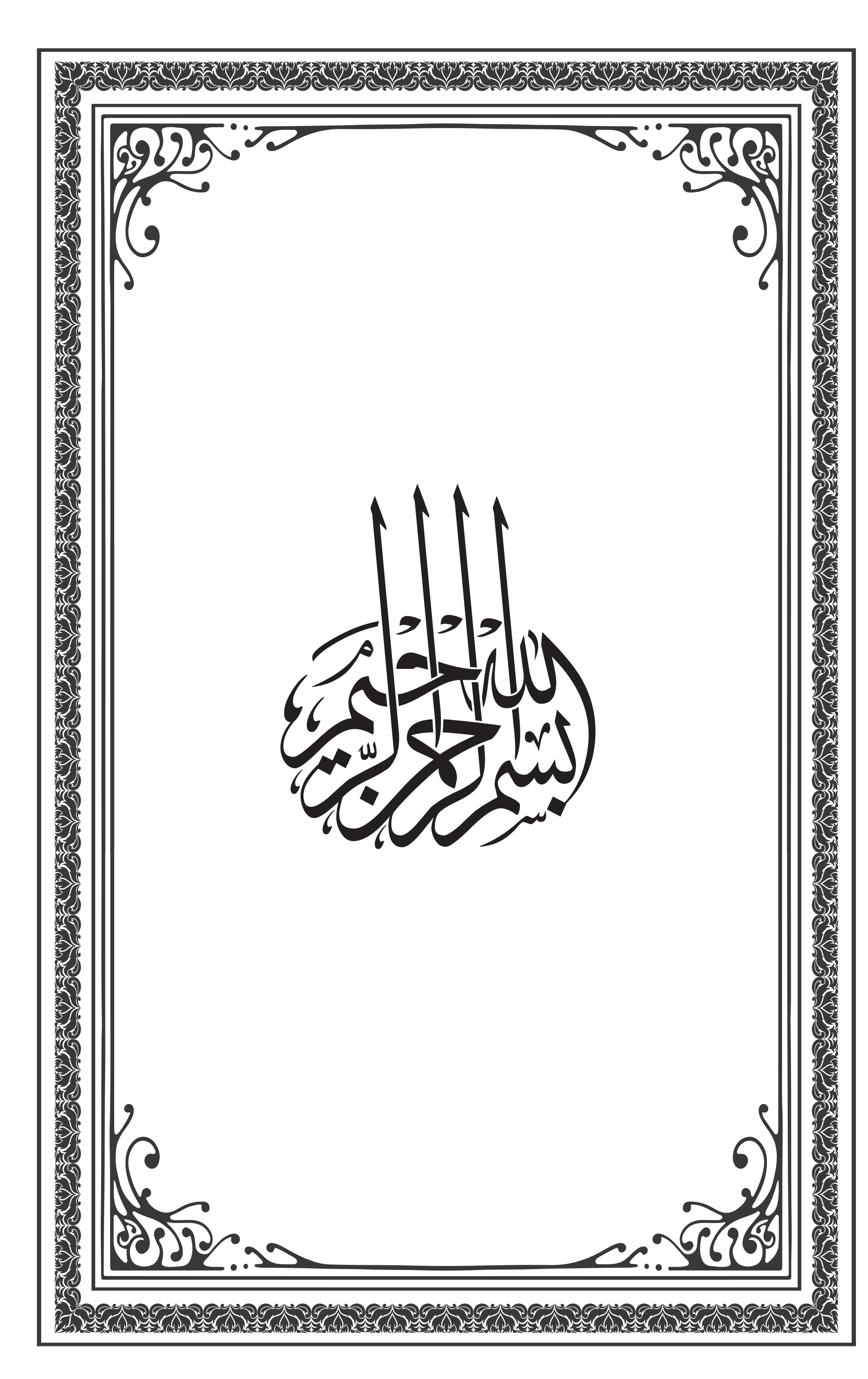
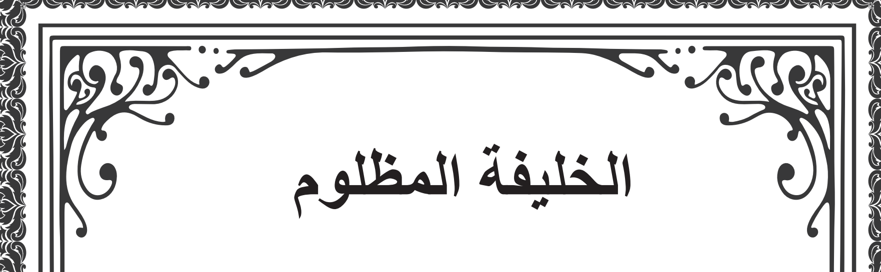
الخليفة المظلوم

عبد اللّه بن الزبير المفترى عليه

د. هاني السباعي




بسم الله الرحمن الرحيم



الخليفة المظلوم

عبد الله بن الزبير المفترى عليه

د. هاني السباعي

مركز المقريزي للدراسات التاريخية

الطبعة الأولى

٩ صفر ١٤٢٦ هـ الموافق ١٩ مارس ٢٠٠٥

الخليفة المظلوم

عبد اللّه بن الزبير المفترى عليه

د. هاني السباعي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أصل هذا الكتاب مقال كتبته في مجلة المنهاج منذ أكثر من عشرين سنة رداً على تطاول بعض الباحثين المعاصرين على هذا الصحابي الشهيد المظلوم؛ عبد الله بن الزبير العوم رضي الله عنهما، وقد حفزني بعض الأفاضل لإعادة نشره بغية أن يستفيد منه الشبيبة وطلبة العلم! وها أنا ذا أعيده كما كتبته أول مرة؛ سائلاً الله تعالى أن ينفع به، وأن يستخدمنا لنصرة أصحاب رسول الله صلى الله عيه وسلم، ورضي الله عنهم أجميعن.

تقدمة:

يطل عليها من وقت لآخر كويتب مغمور، لفظه القلم لسوء أدبه، ومجه لخبث طويته؛ يعيش هذا المجهول النكرة بين ثنايا النسيان فلم يجد إلا الطعن في الإسلام وأعلامه الميامين، فاحتضنه الشيطان وربّاه على عينه، فلما استوى عودُ زيفه، واشتد ساعدُ حقده؛ خاض حرباً لا هوادة فيها على الإسلام وأهله، ومرغ تاريخهم في الرغام، فلم يترك لهم منقبة ولا محمدة إلا طمسها أو طعنها، ولا نصراً إلا شوهه، ولا مقدساً إلا خدشه؛ بغية أن تخطفه أضواء الشهرة وحديث الناس؛ فينشر قيؤه عبر صحيفة حاقدة، أو مجلة عاقر، أو كتاب مسموم فرّ عنه قراؤه، أو إذاعة مأجورة، أو تلفاز يحركه الباطل.

ونظراً لغياب شريعة الرحمن نرى هذه النكرات تخرج من جحور الباطل طاعنةَ في الإسلام ومقدساته وقادته. فالطعن في الإسلام على قدم وساق، وإن كان مستتراً كمؤلفات رفاعة الطهطاوي الذي افتتن بالفرنسيس، وانبرى علماء الأزهر يفضحون هؤلاء المعممين الجدد، حتى ظهر قاسم أمين في بداية هذا القرن؛ فاحتضنه سعد زغلول والشيخ محمد عبده، ولفيف من أدوات الاستعمار، فظهر من ينادي بجعل الطلاق بيد المرأة، والطعن في تعدد الزوجات، وصار الإسلام مرتعاً لهؤلاءِ النكرات! وصرنا نعيش في زمن الطعون والنيل من عقيدة الإسلام ومقدساته! فلم يسلم من سمومهم نبيٌ مرسلٌ، ولا ملك مقرب، ولا حتى رب العزة سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرًا! فلا تكاد تفتح كتاباً أو

تتصفح مقالاً إلا تجد الفتنة الكبرى ـ مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ الفتنة بين أصحاب الجمل ـ يوم صفين ـ قصة التحكيم ـ والطعن في أبي موسى الأشعري ـ المدح في صورة القدح لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ـ وحكاية مقتل مالك بن نويرة ـ وعبد الله بن الزبير وطلبه الخلافة لنفسه رضي الله عن الصحابة أجمعين. فإذا قلت لهم (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (البقرة:١٣٤)

قالوا: هذا حجرٌ على العقول! وعجزٌ عن الرد! والإسلام لا يعرف الطلاسم ولا الكهنوت! واتخذوا ذلك تكأة لنشر سمومهم!.

وهكذا كلما ظهر موقفُ عزٍ للمسلمين طمسوه وحاربوه! وكلما بدت في الأفق تباشيرُ نصر للمسلمين حتى وإن كانت على الأمد البعيد عز عليهم علو الإسلام!؛ فطفقوا يعربدون بتاريخهم وأخرجوا أضغانهم بالتعريض تارة وبالتصريح تارات! فهارون الرشيد رحمه الله صاحب ملذات ويعاقر الخمر!، وصلاح الدين الأيوبي قتل السهروردي والشاعر عمارة اليمني؛ أي أنه كان عدواً للعلم والأدب! ولا يستجيب لهذه الدعاوى الزائفة إلا أصحاب القلوب المريضة والأهواء الزائغة.

ورغم أن هذه المحاولات بدت منذ الصدر الأول وبالتحديد منذ فتنة عبد الله بن سبأ اليهودي الصنعاني المولد الذي كان أول من حرض على كره ومقتل الخليفة الراشد أمير المؤمنين الشهيد المظلوم عثمان بن عفان سنة ٣٥هـ إلى وقتنا الحاضر؛ فإن الإسلام باق والحمد لله؛ نظراً لطبيعته العقدية المرنة ولصلابته في نفس الوقت التي أبت الأنفس التي اعتنقته وفهمته ولامس الإيمان شغاف قلوبها الخضوع لغير سلطان الله، فكلما انكسر جيل

ظهر آخر. فلا يوجد دين على وجه البسيطة منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى قيام الساعة تعرض لمثل هذه الإحن والدسائس التي تعرض لها الإسلام، فقد سقطت حضارات وأديان ولم تصمد أمام كيد أعدائها! أما الإسلام فإنه أنموذج آخر فريد حباه الله بمقومات عقائدية وحفظٍ رباني، مقوماتِ البقاء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولن أطيل في هذا المقام فكتب التاريخ والسير مفعمة بالعبر والعظات.

عود إلى موضوعنا:

قبل أن نشرع في الذب عن خلافة ابن الزبير المفترى عليه وعليها فإن الذي حفزني على كتابة هذا المقال أنني منذ سنوات قد ابتليت بمشاهدة رئيس تحرير حزب الوفد المصري العلماني (جمال بدوي) وكان يقدم حلقات عن التاريخ الإسلامي ولم يجد هذا الرجل في التاريخ الإسلامي إلا الفتنة الكبرى، والخوارج، ونكبة البرامكة، ثورة الزنج، والقرامطة وقتل الخلفاء، ودولة الصعاليك يقصد دولة المماليك!! وفي إحدى الحلقات كان يتكلم عن الفرق التي كانت تخرج على الحكومات الإسلامية كالخوارج والشيعة.. وذكر أن من هؤلاء الخوارج والحشاشين الباطنيين الذين كانوا يخرجون على الحكومة الشرعية؛ كنافع بن الأزرق وعبد الله بن الزبير!! فاسترجعت وحوقلت! مما أثار حفيظتي ودفعني لأذب عن هذه الصحابي (عبد الله بن الزبير) المظلوم حياً وميتاً وأن أميط اللثام حول دولته المفترى عليها تاريخياً! فهل يصل التزلف والزيف إلى هذه الدرجة بحيث يساوى عبد الله بن الزبير

الصحابي الفقيه الزاهد الشجاع المقدام الأسد الهزبر خليفة المسلمين مع نافع بن الأزرق وطوائف المبتدعة؟!

وللأسف الشديد فإن «جمال بدوي» ومن على شاكلته لم يتكلم من فراغ! فكتب التاريخ القديم منها والحديث قد تعرضت لهذا الموضوع ومحشوة بأغاليط وأكاذيب! واستنتاجات في غير موضعها وغير بل غير صحيحة! وأضحت هذه القناعات التي بنيت على أخبار القصاصين والوضاعين مسلمات تاريخية يتناقلها كتاب كثيرون ينتسبون إلى العمل في الكتابة التاريخية!. وسيكون طرحنا لمناقشة قضية الصحابي عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ودولته عبر النقاط التالية:

المبحث الأول: بعض الكتاب المعاصرين الذين تناولوا بالكتابة والتحليل لشخصية عبد الله بن الزبير ودولته.

المبحث الثاني: العوامل التي ساعدت على مبايعة المسلمين لابن الزبير.

المبحث الثالث: الرد على أبرز ما ذكره الكتاب من شبهات حول شخصية ابن الزبير وأسباب فشله في الاحتفاظ بدولته.

المبحث الرابع: بطاقة تعريف (ترجمة مختصرة لشخصية عبد الله بن الزبير).

المبحث الخامس: صفوة القول: هل يعد ابن الزبير من الخلفاء الراشدين؟وهل خلافته خلافة راشدة؟

المبحث الأول

بعض الكتاب المعاصرين الذين تناولوا بالكتابة والتحليل لشخصية عبد الله بن الزبير ودولته

لقد اخترت عينة من الكتاب المعاصرين من أبرزهم:

الأول: الدكتور حسن إبراهيم حسن: صاحب كتاب (تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي) يقول في كتاب المذكور:»نشأة حزب الزبيريين: يرى كثير من المؤرخين أن نشأة هذا الحزب ترجع إلى الوقت الذي دعا فيه عبد الله بن الزبير إلى نفسه بمكة سنة ٦٣ هـ، على أننا نرى أن نواة هذا الحزب قد ظهرت بعد الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان وخروج طلحة والزبير وعائشة على علي بن أبي طالب»[١]

التعليق على الفقرة السابقة:

قبل الرد الموضوعي لنا ملاحظات شكلية نصوغها في النقاط التالية:

(١) نلاحظ أن الدكتور حسن إبراهيم تعمد ذكر (حزب الزبيريين) نسبة إلى الصحابي الجليل الزبير بن العوام (ت ٣٦ هـ) حواري رسول الله صلى

[١] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي/دار الجيل/ بيروت/ ط١٣/ج١ ص٣٣٣.

الله عليه وسلم وابن عمته وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، والكاتب يقصد أن الزبير وطلحة بن عبيد الله (ت ٣٦ هـ) وكان طلحة أيضاً أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أهل الشورى، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (ت٥٨ هـ) وعنهم جميعاً؛ قد شكلوا حزب معارضة ضد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وما نجم عن ذلك من قتال في موقعة الجمل (٣٦ هـ).

لست أدري من أي نبع إسلامي استقى الكاتب هذه الأطروحة الحزينة؟! فمن على وجه التحديد اختار هذا الحزب؟! ومن الذي أطلق حزب (الزبيريين) على هذا الحزب؟ ولماذا لم يطلق عليه حزب (الطليحيين) مثلاً أو (حزب أم المؤمنين)؟!؛ فالدكتور حسن إبراهيم رغم طول باعه في دراسة التاريخ الإسلامي إلا أنه كان يكثر في كتبه مرويات واهية بدون تحقيق أو تمحيص، وقد وقع بالفعل في شراك المنظومة الغربية واعتمد على منطلقاتها وطروحاتها (مقدمات واستنتاجات)، فعندما يذكر كلمة (حزب) فإنه يقصد الحزب الذي استقر في الضمير الغربي الذي يتناقض والعقيدة الإسلامية، والمتابع للمفهوم التاريخي لفكرة الأحزاب ـ حاكمة ومعارضة ـ في الدول الغربية مثل بريطانيا وفرنسا وأمريكا؛ وهي أرقى صور الديمقراطية الحديثة أو حتى في اليابان وروسيا حالياً وبعض الدول المنتسبة للإسلام التي تسير في فلك المنظومة الغربية مثل باكستان وبنجلاديش، وبعض الدول التي تحبوا على سلم المنظومة الحزبية مثل مصر وبعض الدول العربية الأخرى كالكويت وغيره!؛ نجد أن هذه الدول تدور في فلك المنظومة الغربية، فمنها من اقترب من الأنموذج ـ نسبياً ـ كبريطانيا وأمريكا ودول أوروبا الغربية، ومنها

من ابتعد عن مسار الأنموذج كسائر الدول المتعلمنة حديثاً كالدول العربية ومعظم الدول الأفريقية وكثير من دول جنوب شرق آسيا!.

فمفهوم الحزب ينطلق من المنظومة الديمقراطية التي ترى حاكمية الشعب بالشعب عن طريق الاقتراع وصناديق الانتخابات التي تصطدم بمفهوم الحاكمية عندنا وهي حاكمية الله سبحانه وتعالى للبشر!؛ فالمشرع والحاكم هو الله جل وعلا!.

ومن ثم فإن لعبة الحكم في المفهوم العلماني الغربي يقتضي أن يكون هناك حزب وحزب مقابل! وذلك إما لتحسين صورة الحاكم المتسلط، وإما كوسيلة لتفريغ الكبت لدى الجماهير لحد ما! فالحزب في المنظومة الغربية يتعارض وطبيعة الإسلام؛ لأنه قد يصل إلى سدة الحكم رئيس مثل (كلينتون)! فهل يستقيم لعاقل أن تختار الأمة الأمريكية (كلينتون) وتسقط (جورج بوش) الذي حقق للأمريكان مجداً لم يستطع رؤساء أمريكا قاطبة أن يحققوه! أليس هو المنتصر في عاصفة الصحراء هام ١٩٩١م؟! أليس هو المنتصر على الاتحاد السوفييتي حيث غير المفهوم السائد قديماً (ثنائية العالم) إلى (أحادية العالم)! وانفرط عقد الاتحاد السوفييتي وصارت روسيا أشبه بدول العالم الثالث!!. وفي المقابل صارت أمريكا في عهده الدولة (العظمى)! أو القطب الأوحد؟! ورغم كل هذه الانجازات سقط جورج بوش! لماذا؟! لأن هذا ثمرة الديمقراطية وتفسخ الأمم المتقدمة صناعياً! تلك الأمم التي يحركها زيف الإعلام المادي الذي يجعل القزم عملاقاً!، والبطل قزماً! ويصير الجاني ضحية!! والجماهير تعيش في دوامة الإعلام الهادر بالأكاذيب!! هذه فكرة الحزب في المنظومة الغربية!! لذلك لا غرو! أن

يصل إلى عضوية الهيئة التشريعية ساقط أو منحرف أو شاذ! تماماً مثلما حدث في إيطاليا منذ سنوات عندما فازت امرأة «عاهرة»! في الانتخابات التشريعية وليس لديها مؤهلات إلا أنها كانت تكشف نصفها الأعلى من جسدها أمام أمواج البشر المتلاطمة التي تلهث وراء المتعة الحرام!! والأمثلة في هذا المقام كثيرة لا يسعها موضوعنا.

هكذا فإن الإسلام نسيج وحده؛ فمبدأ أهل الحل والعقد وهم نقباء الناس وسادتهم من أهل العلم والصلاح لا تتوافق والمنظومة الغربية.

قد يتساءل البعض لقد وردت كلمة (حزب) في القرآن كما في سورة المجادلة (أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (المجادلة:٢٢).. فإذا كان الأمر كذلك فلا ضير أن يطلق الكاتب اسم (حزب الزبيريين) على هذه المجموعة في تلك الحقبة التاريخية؟

أقول: عن الكاتب لم يصب كبد الحقيقة بل أبعد النجعة! فذكر كلمة حزب في القرآن جاءت مضافة إلى فريقين متناقضين من البشر (ألا إن حزب الله هم المفلحون) وفي المقابل حزب الشيطان (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)، فالمقصود حزب الله أي (أمة الإسلام) في مقابل حزب الشيطان (أمة الكفر).

أما ما ورد في الفقرة السابقة (حزب الزبيريين) فنرى أن الدكتور حسن إبراهيم يقصد المفهوم الغربي لكلمة (الحزب)، لأنه لم يذكر أحد من السلف أو الخلف حتى بداية القرن المنصرم هذه العبارة (حزب الزبيريين)! فهذه العبارة كان يرددها كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) وغيره من المستشرقين! مما يؤكد وجهة نظرنا في أن الغرض من إطلاق

هذا الاسم (حزب الزبيريين)؛ هو ترسيخ المفهوم الغربي لكلمة (حزب) مما يشوه الصورة المثلى للحكم الإسلامي في ذهن القارئ؛ فميكافيلية الأحزاب ونفعيتها وسيرها في دوائر مربعة!! كما يقال في قاموس السياسة! التي لا تخفى على المتابعين لهذه الظواهر التاريخية والسياسية! فالوضع مختلف تماماً في عصر الصحابة وما بعده! فهناك قضايا شرعية لا تتفق والمنظومة الغربية كقضية الحسبة والنهي عن المنكر والخروج على الحاكم؛ إنها قضايا شرعية لا تسير في نفس القنوات التي تسير فيها الطروحات الغربي! فإذا أنكرت جماعة من المسلمين (صحابة وغيرهم) على الحاكم المسلم سواء بالقول أو بالفعل يقال إنهم ما خرجوا إلا للاستيلاء على السلطة! وإنهم يطمحون في الحكم لتحقيق مآربهم الحزبي! فمنطلق الصحابة والجيل الأول في صدر الإسلام في نصح وحتى مقاومة الحاكم والخروج عليه؛ من منطلق القرآن الكريم والسنة والفهم العام لروح الإسلام!؛ هكذا فعل الصحابة عندما خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهم اعتقدوا أن علياً رضي الله عنه قصّر في محاكمة قتلة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومن ثم خرجوا عليه ودعوا إلى منابذته! أما الخليفة الراشد علي رضي الله عنه: فقد حاربهم لاعتقاده خروجهم على الإمام الشرعي وخروجهم على جماعة المسلمين! ومن ثم قاتلهم قتال البغاة لا قتال المرتدين.

فكلا الطرفين متأول والمشهور لدى علماء السلف أن الحق كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعنهم أجمعين. قال تعالى في محكم التنزيل: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (البقرة:١٣٤).

(٢) قول الدكتور حسن إبراهيم: (إن عبد الله بن الزبير كان يرى أحقيته الخلافة فأوقع بين علي بن أبي طالب وبين أبيه الزبير بن العوام).

هكذا يرسم لنا الكاتب شخصية عبد الله بن الزبير رضي الله عنه كشخص نفعي وصولي يصعد على أكتاف الآخرين يوقع بين خيار الأمة ويفسد العلاقة بينهم! أي رجل هذا الذي يتكلم عنه الدكتور حسن إبراهيم؟! هل يعقل حتى ولو لم نحرر النص من الناحية الوثقية: ان يرى عبد الله بن الزبير ربيب بيت النبوة والتقوى أحقيته بالخلافة رغم وجود أشياخ الصحابة الكبار كأبيه الزبير، وطلحة بن عبيد الله، وعلي بن أبي طالب نفسه، وحتى معاوية بن أبي سفيان الذي كان أكبر منه سناً بالإضافة إلى خلق كبير من وجهاء الصحابة!!

أهكذا نطلق العنان للقلم يسطر هذه الروايات المدسوسة لنطعن في خيار الامة؟!.

(٣) قول علي مخاطباً الزبير بن العوام رضي الله عنهما: «لقد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا»!.

تأمل! الأشخاص الذين يتكلم عنهم الكاتب: «علي بن أبي طالب/ الزبير بن العوام/عبد الله بن الزبير»!! صفوة المسلمين وخلاصة المجاهدين وأعلام الهدى وأطهر البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خلفائه الصديق والفاروق وذي النورين! يقول أحدهم للآخر: «حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا»!! لو حذفنا الأسماء وتركنا الحوار مجرداً لظننا ان الكاتب

ينقل ما دار في مضبطة ما يسمى (ثوار يوليو ١٩٥٢م) عبد الناصر ورفاقه؛ صلاح سالم، وعبد الحكيم عامر، والسادات، وبقية العقليات المتخلفة التي حكمت مصر!! أي حوار هذا الذي يذكره الكاتب كمسلمة لنتائجه التي بنى عليها فكرته في تقويم أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه! نحن نربأ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهوى بهم الحديث إلى هذا الحضيض! ولن نخوض في الذب عن أخلاق الصحابة رضي الله عنهم أكثر من هذا! فعظيم أفعالهم وجليل أخلاقهم أجمعت عليها الأمة من لدن الصدر الأول إلى وقتنا الحاضر.

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم ** ماذا رأى منهــم في كل مصطدم
فسلْ حنيناً وسلْ بدراً وسلْ أحداً ** فصول حتفٍ لهم أدهى من الوخم

خلاصة ما سبق

أرى أن الدكتور حسن إبراهيم لم يتحر الدقة واعتمد على نقول، وآثار عارية من الصحة وردد ما ذكره بعض المستشرقين في مفهوم (الحزبية)! ولم يبد تحفظه أو اعتراضه على هذه التسمية!.

الكاتب الثاني: الدكتور محمد ماهر حمادة:

يقول في كتابه (دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي) : «وأما ابن الزبير فيمثل وجهاً آخر من وجوه الحركة التاريخية، إنه يمثل شخصاً

طامحاً للخلافة ولكن لم يكن أهلاً لها، وليس عنده استعداد لها فقد كان بخيلاً كل البخل والعرب لا تدين لبخيل. كان يعطي الناس فيء الله وكأنه يقسم ميراثه من أبيه (..) وكذلك لم يكن داهية ولم يكن ذا نظر في العواقب»[١]

ويقول أيضاً: «كذلك عجز ابن الزبير عن تآلف الشيعة وابن عباس وابن عمر وقد أراد أن يظهر بمظهر العدل والنسك والتشبه بعمر بن الخطاب وهو بنفس الوقت يخزن المال»[٢]

ويضيف أيضاً: «وهكذا أثبت ابن الزبير ضعفاً سياسياً مزرياً إلي جوانب نواقصه الأخرى. فلم يتمكن من استغلال المختار ولا استغلال الشيعة ولا الخوارج وتألب الجميع ضده وإذا أضفنا إلي ذلك قلة أنصاره المحنكين المجربين أدركنا لماذا عجز عن استخلاص الخلافة لنفسه بعد أن كان خُطِبَ له بعد وفاة يزيد في أغلب الأمصار حتى في دمشق نفسها»[٣]

التعليق:

نلاحظ أن الكاتب يذكر الصحابة بدون كلمة الترضي (رضي الله عنه) ففي الوقت الذي يشمئز البعض من خطابهم وذكرهم بدون

---

[١] دكتور محمد ماهر حمادة: دراسة ووثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت طبعة أولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ ص٤٧ بتصرف.

[٢] المرجع السابق دراسة وثقية ص٤٨.

[٣] المرجع السابق دراسة وثقية ص٥٠.

ألفاظ التبجيل العرفية مثل (حضرتك وسموك وفضيلتك..إلخ). والألقاب العلمية مثل: (الدكتور أو البروفيسور أو الأستاذ..إلخ). يتمعر وجه أحدهم إذا خاطبته بدون ألفاظ التبجيل المصطنعة!! أما صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم فيذكرونهم كآحاد الناس أو كالنكرات التي يتعامل معها في بحثه أو دراسته!! فهل هذا الأسلوب يليق بقادة وسادة الأمة؟!! هل هذا الخطاب يليق بصناع التاريخ والحضارة، تلك الثلة المؤمنة الطاهرة التي رضي الله عنها في قرآنه الكريم: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[١]

الثالث: الدكتور محمد عمارة:

لقد ذكر في كتابه (مسلمون ثوار) في سياق حديثه عن السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وإعجابه بشخصية (الثائر)! عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: «ولقد ارتبطت حياة أسماء بحياة ابنها الأكبر عبد الله بن الزبير ت ٧٣هـ أكثر من

---

[١] التوبة آية ١٠٠.

غيره من أبنائها.. فهو عالم وفارس وخطيب وأكثر من هذا فهو صاحب طموح، يسعى ليضع فكره عن الشورى والحرية والعدل موضع التطبيق.. ولذلك كانت ثورته ضد بني أمية سنة ٦٤ هـ بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية.. ولقد بايعه الناس بالخلافة، وجعل مكة عاصمة لدولته التي ضمت مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر أجزاء الشام.. فكان طبيعياً أن يكون مكان أسماء مع الطموح العظيم لابنها الأكبر عبد الله، وأن تكون عوناً له على تحقيق طموحه"[١]

التعليق

نلاحظ أن د.عمارة يتكلم عن الصحابي عبد الله بن الزبير كثائر يرفض التقاليد السائدة؛ ثائر على السلطة لا يهم ماذا يحمل من مبادئ وعقيدة وأفكار، المهم أنه ثائر على السلطة الحاكمة! والذي يقوي هذه الرؤية لدينا أن كتابه (مسلمون ثوار) يتكلم على سبيل المثال عن غيلان الدمشقي ت ١٠٩هـ، وعمرو بن عبيد ت ١٤٤هـ، وعلي بن محمد صاحب الزنج ت ٢٧٠هـ ، وعبد الرحمن

[١] د.محمد عمارة: مسلمون ثوار ـ دار الشروق ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ ـ ص١٣٤.

الكواكبي ت ١٩٠٢هـ، ورشيد رضا ت ١٩٣٥ وغيرهم كثوار!؛ فعبد الله بن الزبير الزبير ثائر، وغيلان الدمشقي القدري ثائر، وصاحب الزنج ثائر، بمعنى أوضح (صحابي = قدري = زنديق)!! لأنهم يشتركون في قضية واحدة وهي الخروج على السلطة وعلى الوضع السائد فهم ثوار! لذلك لا ينسى دكتور عمارة أن يبين لنا أن هذا الثائر شخص طموح حتى أمه أسماء بنت الصديق أيضاً امرأة طموح!! فقضية القيام بالواجب الشرعي بعيدة تماماً عن ذهن الدكتور محمد عمارة.

الرابع: الدكتور شحاتة الناطور:

وكاتب آخر هو د. شحاتة علي الناطور في كتابه (عبد الله بن الزبير والانتفاضة الثورية في عهد بني أمية).. يقول: "ولعل من أهم الثورات التي قامت في بداية الدولة الأموية تلك التي قام بها عبد الله بن الزبير بسبب تحويل الخلافة الإسلامية الديمقراطية إلى ملكية وراثية"[١]

ويقول الناطور أيضاً: "لم يؤثر ابن الزبير في الدولة الأموية فقط،

[١] الناطور: عبد الله بن الزبير والإنتفاضة الثورية في عهد بني أمية ـ دار ابن رشد ـ ط أولى ـ ١٩٨٤م ـ ص١١.

فلا يستطيع أحد أن ينكر أنه قام بأول ثورة حقيقية في فجر الدولة الأموية، وامتد تأثيره حتى نهايتها في شتى المجالات؛ السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية"[١]

هكذا نلاحظ أن الكاتب معجب بثورية عبد الله بن الزبير، متعاطف معه كصحابي، تماما مثل الدكتور محمد عمارة لكنه سار على نفس منهج من سبقوه في الكتابة عن ابن الزبير، ولم يمحص الروايات التاريخية التي اعتمد عليها ومن ثم اعتمد الأخبار الملفقة والمدسوسة وخرج بنتائج هزيلة لمقدمات باطلة.

الخامس: الدكتور عمر فروخ:

يقول في كتابه تاريخ الأدب العربي: «بعد معركة صفين نادى معاوية بن أبي سفيان والي الشام بنفسه خليفة على الشام وحكم عشرين سنة، من سنة ٤١ هـ إلى ٦٠ هـ.. ثبت الملك في أثنائها لبني أمية، وجعل الخلافة وراثية في نسله. وكانت المشكلة الأساسية التي واجهت معاوية أن أقطار الخلافة الباقية؛ الحجاز والعراق ومصر وما وراءها كلها لم تكن تابعة له، ثم كان له فيها منافسون أقوياء!

[١] الناطور: عبد الله بن الزبير والانتفاضة ـ ص١٢.

ولقد كان أقوى منافسيه عبد الله بن الزبير وكان يبسط نفوذه على الحجاز كله وعلى جانب العراق»[١]

ويكرر الدكتور فروخ نفس الخطأ: «استطاع عبد الله بن الزبير بعد مقتل علي بن أبي طالب ٤٠ هـ أن يجمع حوله الناقمين على بني أمية وأن يبسط نفوذه على الحجاز والعراق ومصر واليمن وخراسان، ولم يستطع معاوية بن أبي سفيان أن يتفرغ لحرب عبد الله بن الزبير لأن معاوية كان مشغولاً بتوطيد الملك في البيت الأموي، ولا استطاع يزيد أن يتغلب عليه»[٢]

التعليق

نلاحظ أن الدكتور فروخ قد وقع في أخطاء تاريخية فادحة:

(١) بعد أن تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه اجتمعت كلمة المسلمين على خليفة واحد وبايعت كل الأمصار معاوية وسمي هذا العام بعام الجماعة سنة ٤١هـ.

(٢) قول الكاتب: «ثبت الملك في أثنائها لبني أمية وجعل الخلافة وراثية في نسله».. هذه العبارة غير دقيقة فشطرها الأخير صحيح، أما الشطر

---

[١] د. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط ٥ ـ ١٩٨٤م ـ ج١ ص٣٥١.

[٢] د. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ج١ ص ٤٤٢.

الأول فليس صحيحاً، فتثبيت ملك بني أمية لم يطرأ في ذهن معاوية رضي الله عنه إلا في آخر حياته.

(٣) الثابت تاريخيا أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه كان قد اعتزل القتال بعد معركة الجمل ٣٦ هـ، ولم يشارك في صفين سنة ٣٧ هـ، بل الثابت أن معاوية كتب إلى عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر، والجهم بن حذيفة، وعبد الرحمن بن يغوث، وعبد الرحمن بن هشام المخزومي، والمغيرة بن شعبة، وسعد بن أبي وقاص، وآخرين ليشاركوا التحكيم بين الفئتين، ثم ظل معتزلاً حتى بايع معاوية عام الجماعة ٤١هـ.

(٤) الثابت تاريخياً أن ابن الزبير رضي الله عنه لم يخرج طيلة حياة الخليفة معاوية رضي الله عنه ولم ينفرد بأي قطر إسلامي، بل كان جندياً في جيوش الفتح الإسلامي في زمن معاوية؛ فكان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه من أبطال المسلمين الذين فتحوا مدينة «سوسة» سنة ٤٥ هـ، وجهز معاوية رضي الله عنه سنة ٥٠هـ جيشاً لغزو القطسنطينية، وكان عبد الله بن الزبير أحد المشاركين في هذا الغزو! فمن أين أتى فروخ بهذه العبارات المغلوطة؟!! فهذا خطأ تاريخي شنيع نرى أن الدكتور فروخ في حاجة إلى تصحيحه خاصة أنه استغرق في تأليف كتابه الضخم (تاريخ الأدب العربي)

قرابة ثلاثين عاماً حيث ذكر: «وبهذا الجزء السادس الحاضر تنتهي السلسلة التي عملت في وضعها جيلاً كاملاً من الدهر (١٣٧٠هـ ـ ١٤٠٣هـ = ١٩٥١ ـ ١٩٨٣م)»[١] ويردد الدكتور فروخ مقولة غير صحيحة: وكان الزبير بن العوام (والد عبد الله بن الزبير) قد طمع في الخلافة، ولقد ورث ابنه عبد الله منه الطموح إلى الخلافة»[٢]

المبحث الثاني

العوامل التي ساعدت على مبايعة المسلمين لابن الزبير رضي الله عنه

هناك عدة عوامل أدت إلى مبايعة المسلمين للصحابي عبد الله بن الزبير رضي الله عنه منها:

(أ) حال الأمة بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه:

لقد ثبت تاريخياً أنه لما ولي يزيد بن معاوية الخلافة أرسل إلى الوليد بن عقبة وكان عامله على المدينة أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة في الحجاز؛ فامتنع عبد الله بن الزبير وفرّ إلى مكة وقال قولته الشهيرة «أنا

---

[١] فروخ: تاريخ الأدب العربي ـ ج١ ص٣٥١.

[٢] فروخ: تاريخ الأدب العربي ج١ ص ٤٤٢.

عائذ ببيت الله» فسمي من يومئذ بـ (بالعائذ بالكعبة). وأما الحسين رضي الله عنه فقد خرج من المدينة وسار إلى مكة دون أن يبايع يزيد بن معاوية. وكاتبَه الشيعة بالكوفة. ونقصد بالشيعة في تلكم الفترة الذين كانوا يناصرون ويشايعون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآل البيت رضي الله عنهم. فلم يكن ظهر بعد مصطلح التشيع والشيعة بالمعنى الانحرافي الموجود حالياً وبروز هذه الطائفة بمعتقداتها كان بعد مذبحة كربلاء سنة ٦١هـ. وبالطبع بعد ردح من الزمن، وآل البيت براء من الشيعة وعقائدها الضالة، وقد قيل إن الحسين رضي الله عنه تسلم من أهل الكوفة مئة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات التي تبايعه، وتحضه على الخروج على يزيد، لكن قدر الله نفذ وخذل الشيعة الحسين كما خذلوا أباه وأخاه من قبل، وعلى إثر مقتل الحسين رضي الله عنه، انتشر التشيع بين الفرس في إيران ومنطقة خراسان نظراً لشيوع الجهل في هذه البقاع في تلك الفترة، واستعرت الحرب بين أبناء الأمة وتفرقت أحزاباً وشيعاً عقب حادثة كربلاء إلى يومنا هذا. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(ب) تحويل الخلافة من طريق الشورى:

هناك عدة طرق لاختيار خليفة المسلمين: الطريقة الأولى كما فعل الصحابة رضي الله عنهم يوم السقيفة لمبايعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. الطريقة الثانية: كما فعل أبو بكر بالتوصية بعمر بن الخطاب رضي الله عنه. الطريقة الثالثة: كما فعل عمر بأن رشح ستة للخلافة يختار من

بينهم خليفة. الطريقة الرابعة: كما فعل أهل الحل والعقد بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه واختاروا علياً رضي الله عنه. ثم تحولت الخلافة من الشورى إلى الوراثة مثلما فعل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في آخر حياته بأخذ البيعة لابنه يزيد. ومن ثم صدم بهذا الأمر كثير من المسلمين ولا سيما بعض الصحابة حيث قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق لمروان بن الحكم: "ما لخيار أردتم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم؟" ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل، قام هرقل".

(ج) استشهاد الحسين رضي الله عنه في موقعة كربلاء سنة ٦١ هـ وما جرّ على الأمة بعد مقتله من ويلات.

(د) هجوم جيش يزيد على المدينة في موقعة الحرة ٦٣هـ وقتله لكثير من الصحابة وخيار الأمة والاعتداء على الكعبة ورميها بالمنجنيق.

(هـ) انحطاط منزلة يزيد عن رتبة وفضل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

(و) التفاف أهل الحجاز وكثير من الصحابة والتابعين حول ابن الزبير رضي الله عنه وتمسكهم به.

(ز) وجود قيادات فاعلة ومعروفة بالشجاعة والصلاح مع ابن الزبير مثل أخيه مصعب.

هذه كانت باختصار أهم العوامل التي ساعدت في مبايعة الناس لابن الزبير.

المبحث الثالث

الرد على أبرز ما ذكره الكتاب من شبهات حول ابن الزبير وأسباب فشله في الاحتفاظ بدولته

التعليق الموضوعي والرد على أبرز ما ذكره الكتاب من شبهات حول شخصية عبد الله بن الزبير وأسباب فشله الاحتفاظ بدولته:

نذكر على وجه الإجمال خلاصة ما قيل من شبهات عن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:

الشبهة الأولى: اعتماد هؤلاء العلماء والباحثين والدراسين على أحاديث غير صحيحية.

الشبهة الثانية: قولهم إن ابن الزبير كان طامعاً للخلافة ولم يكن أهلاً لها.

الشبهة الثالثة: لم يكن منتهزاً للفرص ولم يكن ذا نظر في العواقب حيث دعاه الحصين بن نمير لمبايعة أهل الشام فرفض.

الشبهة الرابعة: عجزه عن استمالة الخوارج والشيعة في صفه وتألب الجميع ضده.

الشبهة الخامسة: إهماله الدعاية والإعلام المتمثل في الشعراء.

الشبهة السادسة: ضعف مركز الحجاز الاستراتيجي.

وهناك أسباب ثانوية أخرى تدندن حول ما ذكرناه.

التعليق على ما سبق

أما تعليقنا على ما أثير من شبهات أو أسباب سقوط الخلافة الزبيرية فسنختار منها الآتي:

الشبهة الأولى

اعتماد هؤلاء العلماء والباحثين والدراسين على أحاديث غير صحيحية

هؤلاء الباحثون يرون صحة استنتاجاتهم حيث يعتمدون نزراً من الأخبار يؤيد مزاعمهم بأن ابن الزبير كان محباً للإمارة والزعامة وكان متطلعاً لها، وعمدتهم في ذلك حديثان:

الحديث الأول: حديث خالد الحذاء ونصه: "عن أبي يوسف يعقوب، عن محمد بن حاطب والحارث قالا: طالما حرص ابن الزبير على الإمارة، قلتُ: وما ذلك؟ قالا: أُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلص، فأمر بقتله، فقيل إنه سرق فقال: اقطعوه. ثم جيئ به في إمرة أبي بكر فقال: ما أجد لك شيئاً إلا ما قضى فيك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أمر بقتلك. فأمر بقتله أغيلمة من أبناء المهاجرين أنا فيهم. فقال ابن الزبير أمروني عليكم.

فأمرناه. فانطلقنا به إلى البقيع، فقتلناه"[1] قال عنه الحافظ شمس الدين الذهبي: خبر منكر.

الحديث الثاني: حديث يعقوب القمي: عن جعفر بن أبي المغيرة، عن أبي أبزى، عن عثمان: أن ابن الزبير قال له حيث حُصر: أن عندي نجائب، فهل لك أن تتحول إلى مكة، فيأتيك من أراد أن يأتيك؟ قال: لا. إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يُلحد بمكة كبش من قريش اسمه عبد الله، عليه نصف أوزار الناس". قال الذهبي: رواه أحمد في مسنده وفي إسناده مقال"[2] وذكر الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريج هذا الحديث: "وهذا الحديث منكر جداً، وفي إسناده ضعف، ويعقوب القمي فيه تشيع، ومثل هذا لايقبل تفرده به، وبتقدير صحته، فليس هو عبد الله بن الزبير، فإنه كان على صفات حميدة، وقيامه بالإمارة إنما كان لله عز وجل، ثم هو كان الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة، وهو أرشد من مروان بن الحكم، حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه، وقامت له البيعة في الأفاق، وانتظم له الأمر"[3]

---

[1] الذهبي: سير أعلام النبلاء الذهبي ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٥ هـ ـ باب ترجمة عبد الله بن الزبير ـ الجزء الثالث.

[2] الذهبي: سير أعلام النبلاء ـ ج٣ ص ٣٧٥.

[3] الذهبي: سير أعلام النبلاء ـ ج٣ ص ٣٧٥.

هكذا يعتمد هؤلاء الكتاب على أخبار منكرة وعارية عن الصحة كمسلمة لطرح ما استنتجاتهم الخاطئة! ومن ثم النيل من هذا الصحابي الجليل وخلافته.

الشبهة الثانية

قولهم إنه كان طامحاً للخلافة ولم يكن أهلاً لها

نلاحظ أن منهج التقويم التاريخي مختل لدى معظم الكتاب المعاصرين؛ فالقيام بالواجب الشرعي يسمى في القاموس الحديث طموح وطلب سلطة!! ويحضرنا في هذا المقام هذه الحكاية لتوضيح الفكرة: "دخل رجل على الخليفة المأمون، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون: وعليك السلام، فقال: أتأذن لي في الدنو منك؟ قال: ادنُ، فدنا، ثم قال: أتأذن لي في كلامك؟ فقال: تكلم بما تعلم أن لله فيه رضا، قال: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلسته أباجتماع من المسلمين عليك ورضا منك، أم بالمغالبة لهم وبالقوة عليهم بسلطانك؟ قال: لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم؛ إنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي

أَحْمَدَهُ المسلمون إما على رضا وإما على كره، فعقد لي ولآخر معي ولاية هذا الأمر بعده في أعناق مَنْ حضره من المسلمين، فأخذ على من حضر بيت الله الحرام من الحاج البيعة لي ولآخر معي فأعطوه ذلك إما طائعين وإما كارهين، فمضى الذي عقد له معي على هذه السبيل التي مضى عليها، فلما صار الأمر إلي علمت أني أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على الرضا، ثم نظرت فرأيت أني متى تخلفت عن المسلمين اضطرب حبل الإسلام ومرج عهدهم، وانتفضت أطرافه، وغلب الهرج والفتنة، ووقع التنازع، فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى، ولم يحج أحد بيته، ولم يجاهد في سبيله، ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم، وانقطعت السبل، ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين، ومجاهداً لعدوهم، وضابطاً لسبلهم، وأخذاً على أيديهم، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضا به، فأسلّم الأمر إليه، وأكون كرجل من المسلمين، وأنت أيها الرجل رسولي إلى جماعة المسلمين، فمتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجت إليه من هذا الأمر. فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وقام، فأمر المأمون علي بن صالح الحاجب بأن ينفذ في طلبه من يعرف مقصده، ففعل ذلك، فمضى إلى مسجد فيه

خمسة عشر رجلاً في هيئته وزيه، فقالوا له: لقيت الرجل؟ فقال: نعم، فقالوا: فما قال لك؟ قال: ما قال لي إلا خيراً، ذكر أنه ضبط أمور المسلمين إلى أن تأمن سبلهم، ويقوم بالحج والجهاد في سبيل الله، ويأخذ للمظلوم من الظالم، ولا يعطل الأحكام، فإذا رضي المسلمون برجل سلم الأمر إليه منه، قالوا: ما نرى بهذا بأساً، وافترقوا"[١]

أقول: الشاهد من هذه الرواية أن إجابة الخليفة المأمون تنطبق على الصحابي عبد الله بن الزبير بل شتان بين خلافة عبد الله بن الزبير وخلافة المأمون! فعبد الله بن الزبير صحابي عدل من فقهاء الصحابة وعلمائهم، وما قام بأمر الخلافة إلا حماية للدين ونصرة للمظلوم من الظالم، والقيام بالواجب الشرعي، وقد اعتزل الفتنة بعد معركة الجمل ولم يشهد صفين كما ذكرنا من قبل، فجهاده وورعه وزهده ثابت تاريخياً، وظل معتزلاً حتى علم بقصة ولاية العهد وتحويل الخلافة إلى ملك وراثي، وحيث إنه عالم وفقيه قام بالواجب الشرعي واعترض على هذه الفكرة المحدثة على المسلمين، ولم يخرج ولم يحارب معاوية رضي الله عنه في ذلك الوقت.

وفي عهد يزيد بن معاوية خرج الحسين رضي الله عنه واستشهد في كربلاء سنة ٦١ هـ؛ وهنا دخلت الأمة في دوامة فتنة جديدة بعد فتنة استشهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه.. وفي عهد يزيد أيضاً حدثت واقعة الحرة

[١] المسعودي: مروج الذهب ـ المكتبة الإسلامية ـ بيروت ـ ج٤ ـ ص٢٠ ، ص٢١.

سنة ٦٣ هـ وقتل فيها جماعة من كبار الصحابة وانتهكت المدينة ولجأ ابن الزبير إلى الكعبة ولقب بالعائذ ببيت الله. فهل بعد هذه الفوضى التي حلت بالأمة وطمع فيها أعداؤها وأطلت الجاهلية برأسها يسكت ابن الزبير؟ هل يسكت العلماء ومن الذي يقوم بالواجب الشرعي إذا لم يقم به العلماء الذين قال الله في حقهم (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) آل عمران آية ١٨٧، وهل بدأت بيعة ابن الزبير إلا بعد مقتل الحسين رضي الله عنه؟! فمن في زمن ابن الزبير يوازيه كفاءة وجهاداً وشجاعة وحنكة وتجربة؟!.

ونحن ندافع عن هذا الصحابي ليس من منظور حبنا له كصحابي فقط؛ بل من خلال منظور نقدي موضوعي أيضاً؛ فعبد الله بن الزبير منذ نعومة أظفاره شب على القتال، وخاض المعارك العظام فقد ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني وغيره أنه شهد معركة اليرموك سنة ١٤ هـ وأنه شهد فتح مصر سنة ٢٠ هـ، بل وشهد على كتاب الأمان الذي أعطاه عمرو بن العاص رضي الله عنه لأهل مصر.. كان ابن الزبير بطل معركة "سبيطلة" سنة ٢٧ هـ وأنه في مقدمة الجيش الذي كان على مشارف قرطاجة في شمال إفريقية، وهو صاحب نظرية الانقضاض السريع على الخصوم وشل حركته، وهو الذي وصل إلى معسكر الروم والوصول إلى خيمة قائدهم الشهير "جريجوريوس" وقتله وانتهت المعركة لصالح المسلمين.. وشهد فتح "سوسة" سنة ٤٥ هـ في شمال إفريقية.. وكان أحد الصحابة الذين اشتركوا في غزوة القسطنطينية سنة ٥٠ هـ.

وكان ابن الزبير من الذين دافعوا عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وجرح بضعة عشرة جراحة، وشهد مشاهد كثيرة من جيوش

الفتح الإسلامي.

فمن في زمنه خاض مثل هذه التجارب العسكرية؟!

أما عن البديهة والذكاء وحسن التدبير فكتب الأدب والتاريخ مفعمة بمواقفه الشهيرة مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من الصحابة، وحيله في المعارك مع الروم والفرس لا تنكر!.

فهل بعد كل هذه المؤهلات العسكرية والسياسية والشرعية والثقل التاريخي يزعم الدكتور حمادة وغيره أن ابن الزبير لم يكن أهلاً للخلافة؟!!

فمهما قيل عن سعة صدر عبد الملك بن مروان، فلا هو ولا أبوه مروان بن الحكم يقارن بابن الزبير؛ لا عسكرياً ولا سياسياً؛ لكن نظراً لأن التاريخ لم يكتب في عهد ابن الزبير، تعرض لحملة تشويه لا نظير لها؛ فلم يظلم خليفة حياً أو ميتاً مثل ابن الزبير رضي الله عنه.

بل إن مروان بن الحكم وابنه عبد الملك خرجا على ابن الزبير وخلافة عبد الملك بن مروان لم تصح إلا بعد مقتل أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه كما ذكر الذهبي والسيوطي وغيرهما.

قال الحافظ السيوطي: "ولم يبق خارجاً عنه إلا الشام ومصر فإنه بويع بهما معاوية بن يزيد، فلم تطل مدته، ولما مات أطاع أهلهما ابن الزبير وبايعوه، ثم خرج مروان بن الحكم فغلب على الشام ثم مصر، واستمر إلى أن مات سنة ٦٥هـ، وقد عهد إلى ابنه عبد الملك، والأصح ما قاله الذهبي أن مروان لا يعد في أمراء المؤمنين، بل هو خارج على ابن الزبير ولا عهده إلى ابنه بصحيح،

وإنما صحت خلافة عبد الملك من حين قتل ابن الزبير، وأما ابن الزبير فإنه استمر بمكة خليفة إلى أن تغلب عبد الملك فجهز لقتاله الحجاج (..) وخذل ابن الزبير أصحابه، وتسللوا إلى الحجاج، وظفر به وقتله وصلبه، وذلك (..) سنة ثلاث وسبعين"[١]

ويقول ابن تغري بردي عن أحداث سنة ٧٣ هـ "وفيها قتل أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب أبو بكر وقيل أبو خبيب القرشي الأسدي أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق له صحبة ورواية. حاصره الحجاج بن يوسف الثقفي بالبيت الحرام أشهرًا ونصب على الكعبة المنجنيق ورمى به على البيت غير مرة حتى قتل ابن الزبير وصلبه. قيل: إن الحسن البصري سئل عن عبد الملك بن مروان فقال الحسن: ما أقول في رجل الحجاج سيئة من سيئاته. وقتل مع عبد الله بن الزبير هؤلاء الثلاثة: وهم عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف الجمحي، وعبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي، وعبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فهؤلاء من الأشراف وأما غيرهم فكثير. ومن يوم قتل عبد

[١] السيوطي: تاريخ الخلفاء ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت طبعة أولى ـ ١٤٠٨هـ ص ١٦٩.

الله بن الزبير صار في الإسلام خليفة واحد وهو عبد الملك ابن مروان. قلت: ومناقب عبد الله بن الزبير كثيرة يضيق هذا المحل عن ذكرها. "[١]

أقول: فعبد الله بن الزبير كان أهلاً للخلافة وكان جديراً بها رغم ما قيل حوله.

الشبهة الثالثة

لم يكن منتهزاً للفرص ولم يكن ذا نظر في العواقب حيث دعاه الحصين بن نمير لمبايعته أهل الشام فرفض

نلاحظ أنه لا يكاد يخلو كتاب أو مقال عن ذكر هذه العبارة، لدرجة أن محققي كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير ذكروها في الهامش: "أن ابن الزبير لم يكن نهازاً للفرص ولا ببعيد النظر فقد سنحت له هذه الفرصة في أن يلي الخلافة لما جاء الخبر بموت يزيد بن معاوية وأراده الحصين بن نمير السكوني على البيعة له وإهدار

[١] ابن تغريد بردي: جمال الدين يوسف: النجوم الزاهرة - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٣ هـ الموافق ١٩٩٢م - ج١ ص ٢٤٤.

ما بينهما من الدماء فأبى وضيع الفرصة"[١]

يعتبر كثير من الكتاب أن هذا أهم سبب فوّته ابن الزبير على نفسه، وبنوا نتائجهم على رفض ابن الزبير لهذا العرض المغري من ابن نمير أنه لم يكن داهية ولم يكن ذا نظر في عواقب الأمور! كما يزعمون.

وتعليقنا على هذه القضية يتلخص في التالي:

هل أخطأ ابن الزبير رضي الله عنه في رفضه دعوة الحصين بن نمير قائد جيوش الشام ـ على افتراض صحة الخبر ـ أم أصاب؟

أقول: هذه الرواية تدل على حنكة وبعد نظر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وليس كما زعموا فهي له لا عليه. فرواية الطبري: «بينما الحصين بن نمير يقاتل ابن الزبير، إذا جاء موت يزيد؛ فصاح بهم ابن الزبير فقال: إن طاغيتكم قد هلك، فمن شاء منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل؟ ومن كره فليلحق بشأمه، فغدوا عليه يقاتلونه. قال: فقال ابن الزبيرللحصين بن نمير: ادن مني أحدثك، فدنا منه فحدثه، فجعل فرس أحدهما يجفل ـ الجفل:

[١] ابن الأثير: عز الدين الجزري: الكامل في التاريخ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ج٤ ص ٢٠.

الروث ـ فجاء حمام الحرم يلتقط من الجفل، فكف الحصين فرسه عنهن. فقال له ابن الزبير: مالك؟ قال: أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم؛ فقال له ابن الزبير: أتتحرج من هذا وتريد أن تقتل المسلمين؟! فقال له: لا أقاتلك؛ فأذن لنا نطف؛ وننصرف عنك، ففعل فانصرفوا»[١]

أقول: نلاحظ أن هذه الرواية لم تذكر الحوار الذي دار بين الرجلين، كما أن هذه الرواية تبين أن ابن الزبير رضي الله عنه هو الذي دعا ابن الحصين للتحاور! لكن الطبري ذكر رواية أخرى تتضمن الحوار الذي دار بين الرجلين: «فبعث الحصين بن نمير إلى عبد الله بن الزبير: موعد ما بيننا وبينك الليلة الأبطح، فالتقيا، فقال له الحصين إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر؛ هلم فنبايعك، ثم اخرج معي إلى الشأم، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشأم وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمّن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك، والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة (..) وزعم بعض قريش أنه قال: أنا أهدر تلك الدماء! أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم

[١] الطبري: تاريخ الطبري ـ ج٥ ص ٥٠٢.

عشرا، وأخذ الحصين يكلمه سراً، وهو يجهر جهراً، وأخذ يقول: لا والله لا أفعل؛ فقال له الحصين بن نمير قبّح اللهُ من يعدك بعد هذه داهياً قط أو أديباً! قد كنت أظن أن لك رأياً، ألا أراني أكلمك سراً وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى الخلافة وتعدني القتل والهلكة!»[١]

أقول: نلاحظ أن هذه الرواية ذكرت أن الحصين بن نمير هو الذي بعث إلى ابن الزبير للتفاوض. عكس الرواية السابقة. وتعتبر هذه الرواية تكأة الطعن في شخصية أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير! كيف يضيّع مثل هذه الفرصة الذهبية ولا يذهب إلى الشام؟! فلو أنه ذهب إلى الشام لاستقر ملكه!! وطفق المحللون يستنبطون العبر والعظات من خلال هذه الرواية. لكن لنا عليها عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: على افتراض صحة هذه الرواية ـ لا نسلم بصحتها ولها مبحث آخر ـ نناقش قضية رفض ابن الزبير تلبية هذه الدعوة: لماذا لم يذهب مع الحصين إلى الشام؟! ولماذا كان يجهر ابن الزبير بما يسره له الحصين بن نمير أمام الناس؟!

الملاحظة الثانية: مما لا شك فيه أن عبد الله بن الزبير كان على دراية كافية بما حدث لمن سبقوه من تلبية مثل هذه الدعوات! فماذا حدث للحسين بن علي رضي الله عنهما عندما جاءته كتب

---

[١] الطبري: تاريخ الطبري ـ ج١ ص ٢٤٤.

أهل العراق ليبايعوه؟! النتيجة أنهم خذلوه وقتل في كربلاء سنة ٦١ هـ ، نفس المأساة كانت مع الحسن بن علي رضي الله عنه؛ إذ خذله أهل العراق، فتنازل عن الخلافة سنة ٤١ هـ وحقن دماء المسلمين..

الملاحظة الثالثة: وإذا كان الحصين صادقاً في دعواه فلماذا لم يبايع ويأتي هو بوجوه أهل الشام طالما هو سيد قومه بغية إثبات حسن النوايا.

الملاحظة الرابعة: إن المزيات التي كان ابن الزبير قد تخلق بها أنه كان لا يعمل شيئاً إلا بمشورة أصحابه، بل لا يكاد يقطع أمراً دونهم، كما ذكر أهل السير والتاريخ ويوضح لنا هذه الحقيقة البلاذري في «أنساب الأشراف»: «إن لي أمراء لست أقطع أمراً دونهم فأناظرهم ثم يأتيك رأي، فرجع ابن صفوان (إلى) ذويه فقالوا: أتخرج من بلد نصرك الله فيه وتفارق حرمَ الله وأمنَه، وتستعين بقوم رموا بيت الله، لا خلاق لهم، فأرسل إلى الحصين إن أصحابي قد أبوا أن يتحولوا إلى الشام»[١]

الملاحظة الخامسة: كيف يتسنى لابن الزبير أن يطمئن إلى رجل مثل الحصين بن نمير الذي شارك في معركة كربلاء، وكان قائداً

---

[١] البلاذري: أنساب الأشراف ـ ج٤ ـ القسم الثاني ص ٥٧ ، ص ٥٨ .. نقلًا عن من كتاب عبد الله بن الزبير والانتفاضة الثورية في عهد بني أمية ص ١٠٧ .. ج٥ ص ٥٠٢.

في الجيش الذي انتهك مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم في معركة الحرة سنة ٦٣ هـ ! واشترك في الاعتداء على الكعبة، وحرقها ورميها بالمنجنيق، وكان جيشه لا يزال محاصراً أهل مكة وأيديهم ملطخة بدماء الصحابة؟!! أي قائد هذا أو أي أمير هذا الذي يستجيب لمثل هذه الدعوة وينتقل من مركز ثقله الاستراتيجي وحضّانته الشعبية ويترك أتباعه ومحبيه إلى مكان قد يخدع فيه ويعرّض نفسَه وأصحابَه للهلكة؟! أليست الحرب خدعة كما في الحديث الصحيح؟! فما الذي يمنع الحصين أن يكون في نيته أن يمكر بابن الزبير ويخدعه؟!.

ومما يؤيد وجهة نظرنا أن بعض الباحثين يرون أن ابن الزبير لم يكن يريد مرافقة الحصين بن نمير للأساب التالية:

(١) حرص ابن الزبير على مشاعر ومحبة أهل الحجاز له: فهو حسب رأي البلاذري كان يستشيرهم ويحرص على رأيهم (..) ولعل تعمد ابن الزبير رفع صوته عند مخاطبة الحصين كان يقصد منه أن يسمع أنصاره الذين كانوا يرافقونه ما يدور بينهما وذلك للاحتفاظ بمحبتهم وتقديرهم ونصرتهم.

(٢) عدم وجود أنصار ـ حتى ذلك الحين ـ له في بلاد الشام يمكن

أن يعتمد عليهم وينصرونه كما هو الحال في بلاد الحجاز، فأهل الشام كانوا يدينون بالولاء والمحبة والتقدير للأمويين.

(٣) عدم ارتياح ابن الزبير للحصين الذي اشترك في كربلاء، كما اشترك وجيشه في واقعة الحرة التي نكل فيها بأهل المدينة بحيث لم يبق بدري بعدها، ثم جاء غازياً مكة، فضربها بالمنجنيق، ولعل ابن الزبير اعتقد أنها خدعة»[١]

الملاحظة السادسة: أما ما ورد في الرواية السابقة من قول الحصين لابن نمير «قبح الله من يعدك بعد هذه داهيا قط أو أديباً».. أقول: فهل يعقل أن يتفوه الحصين بهذه العبارة وبهذه الغلظة لعبد الله بن الزبير وأمام أتباعه وجيوشه وهو من هو؟!! هذه العبارة لا تستقيم وطبيعة الحوار القائم بين الرجلين إن صحت أصلاً الرواية!.

أقول: هكذا استبان لنا بُعد نظر أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير في الأمور، ولو أنه استجاب لهذه الدعوة في ظل هذه الظروف وهذه الأجواء والخلفيات السياسية والتاريخية، وحدث أن انقلب عليه أهل الشام؛ لردد هؤلاء الباحثون نفس مقولتهم وقالوا عنه إنه لم يكن داهية ولم يكن ذا نظر في عواقب الأمور!!

---

[١] الناطور: عبد الله بن الزبير والانتفاضة الثورية في عهد بني أمية ص ١٠٩.

الشبهة الرابعة

عجزه عن استمالة الخوارج والمختار الثقفي إلى صفه

أما الخوارج: فقد تباكى الدكتور شحاتة الناطور على ابن الزبير لعدم استمالته الخوارج بسبب خلاف معهم في بعض الأصول الكلامية!! بقوله: «عرفنا أن الخوارج قاتلوا معه جيش الشام في عهد يزيد، ولكنه اختلف معهم في بعض الأصول الكلامية، لو استطاع التمكن من الاحتفاظ بهم إلى جانبه لما احتاج أن يضيّع قسماً من جنده في قتالهم (..) كما أنه لكسب بهم قوة لا بأس بها كيف لا وهم رجال مقاتلون من الدرجة الأولى كان باستطاعتهم أن يشدوا أزره ضد خصومه»[١]

أقول: فمن هم الخوارج الذين يتباكى عليهم هؤلاء الكتاب؟ إنهم الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق، وكان من أكبر فقهائهم ولم تكن من الخوارج قط فرقة أكثر عدداً ولا أشد شوكة من الأزارقة، وقبل أن نعرف لماذا رفضوا الانضمام تحت لواء عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ومبايعته، نسوق على عجالة موجزاً باعتقاد الأزارقة.

---

[١] الناطور: عبد الله بن الزبير والانتفاضة ـ ص١٨١.

موجز اعتقاد الأزارقة

* لقد كفّر نافع بن الأزرق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وجميع الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا معه أو ضده.

* يعتبر نافع بن الأزرق وأصحابه الصحابة: علياً وعثمان وطلحة والزبير، وجميع الصحابة ومن والاهم مثل كفار العرب وعبدة الأوثان؛ لا تؤكل ذبائخهم ولا يصلى خلفهم أو معهم ولا يُتزوج من نسائهم.

* يعتقد نافع أن بلاد مخالفيه دار حرب.

* أحل قتل أطفال المسلمين ونسائهم لأنه كان يعتقد أن أطفال مخالفيه مشركون ومخلدون في النار.

*كان نافع يستحل الغدر بمن خالفه، لذلك كان يقتل الأسير ويغدر بمن طلب الأمان.

*كان يكفر القعدة الذين كانوا على رأيه (أي من أصحابه) عن القتال مع قدرتهم عليه، أو عن الهجرة إليهم. لذلك كان يوجب امتحان من ينضم إليهم كأن يطلب منه أن يقتل أحدَ الأسرى فإن رَفَضَ قتله!!.

*كان نافع يكفر مرتكب الكبيرة ويرى أنه مخلد في النار.

* أسقط حد الرجم عن الزاني المحصن لأنه لم يرد نص عليه في القرآن.

*كان يرى نافع قطع يد السارق في القليل والكثير.[١]

سبب رفض الخوارج مبايعة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:

نذكر النص الذي استشهد به كثير من الكتاب للاستدلال على قصر نظر الصحابي عبد الله بن الزبير سياسياً كما زعموا: «فمضى نافع وأصحابه من الحرورية قبل الاختلاف إلى مكة، ليمنعوا الحرم من جيش مسلم بن عقبة، فلما صاروا إلى ابن الزبير عرّفوه أنفسهم، فأظهر لهم أنه على رأيهم، حتى أتاهم مسلم بن عقبة وأهل الشأم، فدافعوه إلى أن يأتي رأي يزيد بن معاوية، ولم يبايعوا ابن الزبير. ثم تناظروا فيما بينهم، فقالوا: ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده، فإن قدّم أبا بكر وعمر، وبرئ من عثمان وعلي، وكفّر أباه وطلحة، بايعناه، وإن تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده،

[١] للمزيد عن تاريخ الخوارج ومعتقدهم : الفرق بين الفرق للبغدادي ـ مقالات الإسلاميين للأشعري ـ التبصير في معالم الدين للطبري ـ الملل والنحل للشهرستاني ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم. راجع أيضا دورة صوتية بعنوان مسائل الإيمان للمؤلف تكلمنا فيها عن تاريخ الخوارج وحقيقة الإيمان لديهم والفرق بينهم وبين أهل السنة وغيرهم من الفرق من إصدارات مركز المقريزي .

فتشاغلنا بما يجدي علينا. فدخلوا على ابن الزبير، وهو متبذل وأصحابه متفرقون، فقالوا: إنا جئناك لتخبرنا رأيك، فإن كنتَ على الصواب بايعناك، وإن كنت على خلافه دعوناك إلى الحق، ما تقول في الشيخين؟ قال: خيراً، قالوا: فما تقول في عثمان، الذي أحمي الحمى، وآوى الطريد، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه، وأوطأ آلَ أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين؟ وفي الذي بعده (أي علي بن أبي طالب) الذي حكّم في دين الله الرجالَ، وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم؟ وفي أبيك وصاحبه، وقد بايعا علياً وهو إمامٌ عادلٌ مرضي، لم يظهر منه كفر، ثم نكثا، بعَرَض من أعراض الدنيا، وأخرجا عائشة تقاتل، وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن في بيوتهن، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة، فإن أنت قلتَ كما نقول فلك الزُلْفَة عند الله والنصر على أيدينا، ونسأل الله لك التوفيق، وإن أبيتَ إلا نصرَ رأيك الأول، وتصويب أبيك وصاحبه، والتحقيق بعثمان، والتولي في السنين الست التي أحلتْ دمه، ونقضت عهده، وأفسدت إمامته؛ خذلك الله وانتصر منك بأيدينا»[١]

---

[١] المبرد: الكامل في اللغة والأدب ـ تحقيق د. محمد أحمد الدالي ـ مؤسسة الرسالةط٣ لسنة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م ـ ج٣ ص ١٢٠٥ ، ص ١٢٠٦.

فماذا كان رد أمير المؤمنين ابن الزبير على هذه الأسئلة المستفزة

فقال ابن الزبير: «إن الله أمر ـ وله العزةُ والقدرة ـ في مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا القول، فقال لموسى وأخيه ـ صلى الله عليهما ـ في فرعون: (فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى»، فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعدو الله، والمقيم على الشرك، والجاد في المحاربة، والمتَبَغّضُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة، والمحارب له بعدها، وكفى بالشرك ذنباً، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيه طلحة وأبي أن تقولوا: أَتَبْرَأ من الظالمين، فإن كانا منهم دَخَلا في غمار الناس، وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبي وصاحبه، وأنتم تعلمون أن الله جلّ وعزّ قال للمؤمن في أبويه: (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) وقال جلّ ثناؤه: (وقولوا للناس حسناً) وهذا الذي دعوتم إليه أمر له ما بعده، وليس يقنعكم إلا التوقيف والتصريح، ولعمري إن ذلك

لأحرى بقطع الحجج، وأوضح لمنهاج الحق، وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه، فروحوا إلي من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله»[١]

«فلما كان العشي راحوا إليه، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه فلما رأى ذلك نَجْدةُ قال: هذا خروجُ منابذٍ لكم، فجلس على رفع من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر، ثم ذكر عثمان في السنيين الأوائل من خلافته ثم وصلهن بالسنيين التي أنكروا سيرته فيها فجعلها كالماضية (..) وذكر الحمى ومن كان فيها من الصلاح وأن القوم استعتبوه (طالبوا الرجوع عما فعل) من الأمور وكان له أن يفعلها أولاً مصيباً، ثم أعتبهم بعد محسناً، ثم كتب لهم ذلك الكتاب بقتلهم فدفعوا الكتاب إليه فحلف أنه لم يكتبه ولم يأمر به، وقد أمر بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته مع ما اجتمع له من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه من الإمامة، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه. وعثمان الرجل الذي لزمته يمين لو حلف عليها لحلف على حق، فافتداها بمئة ألف، ولم يحلف، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حلف

---

[١] المبرد: الكامل ـ ج٣ ص ٢٢٢.

بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرض. فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه وأنا ولي وليه، وعدو عدوه، وأبي وصاحبه صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى يوم أحد لما قطعت أصبع طلحة، سبقته إلى الجنة، وقال أوجب طلحة! وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال ذلك اليوم كله أو جله لطلحة. والزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته. وقد ذكر أنهما في الجنة وقال عز وجل (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) وما أخبرنا بعد أنه سخط عليهم. فإن يكن ما سعوا فيه حقاً فأهل ذلك هم، وإن يكن زلة ففي عفو الله تمحيصهما، وفيما وافق لهما من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم، ومهما ذكرتموهما به فقد بدأتم بأمكم عائشة رضي الله عنها فإن أبى آبٍ أن تكون له أماً نبذ اسم الإيمان عنه؛ قال الله جل ذكره وقوله الحق: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم)، فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا»[١]

وفي رواية الطبري قال: «حمد الله ابن الزبير وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فقد فهمت الذي ذكرتم، وذكرت به النبي صلى الله عليه

---

[١] المبرد: الكامل في اللغة والأدب ـ ج ٣ ص٢٢٣ ، ص٢٢٤.

وسلم، فهو كما قلت صلى الله عليه وسلم وفوق ما وصفته، وفهمت ما ذكرت به أبا بكر وعمر وقد وفقت وأصبت، وقد فهمت الذي ذكرت به عثمان بن عفان رحمة الله عليه، وإني لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان، وأمره مني، كنت معه حيث نقم القوم عليه، واستعتبوه فلم يدع شيئاً استعتبه فيه القوم إلا أعتبهم منه، ثم إنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه فيهم، يأمره فيه بقتلهم، فقال لهم ما كتبته، فإن شئتم فهاتوا بينتكم، فإن لم تكن حلفت لكم، فوا الله ما جاؤه ببينة ولا استحلفوه ووثبوا عليه فقتلوه، وقد سمعت ماعبته به، فليس كذلك، بل هو لكل خير أهله، وأنا أُشهدكم ومن حضر، أنا ولي لابن عفان في الدنيا والآخرة وولي أوليائه وعدو أعدائه، قالوا: فبرئ الله منك يا عدو الله. فقال: فبرئ الله منكم يا أعداء الله وتفرق القوم.»[١]

أقول: هكذا استبان لنا سبب رفض ابن الزبير استمالة الخوارج: فهم يناظرونه والحرب دائرة، أي وسيلة هذه أي عبث هذا؟! فهم يعلمون أن الموقف جد صعب وجيوش الشام تحاصر مكة، ورغم ذلك يريدون أن يحاربوا معه بشروط، وخطاب في منتهى الغلظة. إنها لصالح ابن الزبير وليس عليه كما يزعمون، ورغم كل ذلك فإنه عاملهم بالحسنى وجادلهم بالتي هي

[١] الطبري: تاريخ الطبري ج٥ ص ٥٦٦.

أحسن، وهم الذين أصروا على مناظرته وطلبوا بتصداق مقالتهم كشرط للانضمام معه ومبايعته. فماذا عسى ابن الزبير الذي ابتلي بهذه العقليات من أهل البدع أن يفعل؟! هل يجاريهم تقية وينقلب عليهم وستجد نفس هذه الأقلام تذم ابن الزبير وتتهمه بالميكافلية! وحاشاه ذلك رضي الله عنه!.

أسباب قتال ابن الزبير للمختار الثقفي[١] المقتول سنة ٦٧هـ

فمن هو المختار الثقفي؟

قال ابن كثير: « هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عفرة بن عميرة بن عوف بن ثقيف الثقفي.[٢] معظم عند الشيعة

وخلاصة القول في المختار الثقفي:

أنه كذاب مخادع وصولي غادر.

أنه نقض بيعة ابن الزبير وغدر بواليه وطرده من الكوفة.

---

[١] راجع: يعظم الكثير من الشيعة المختار وذلك لمطالبته بدم الإمام الحسين بن علي الإمام الثالث، والذي قتل في واقعة الطف ويروي الشيعة عن الامام محمد الباقر الإمام الخامس حديثًا عن المختار بأنه قال لا تسبوا المختار فإنه قتل قتلتنا، وطلب ثأرنا، وزوج أراملنا، وقسم فينا المال على العسرة»أهـ بتصرف ـ بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٥٠.

[٢] راجع ترجمة المختار الثقفي: البداية والنهاية لابن كثير تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ هجر للطباعة والنشر ـ طبعة أولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨م ـ الجزء ١٢ ص ـ الطبري ج من ص ٦٤ ـ ٦٢.

أنه كان فاسد الاعتقاد يزعم أنه يوحى إليه، استحوذ على الناس بإظهار الأخذ بثأر الحسين رضي الله عنه، لذلك نرى أن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير لم يقصر في استمالة المختار الثقفي إلى جانبه عندما علم فيه الصدق أولاً، وماذا عسى ابن الزبير أن يفعل في رجل بايعه ودعا له على المنابر علانية، لكنه اكتشف أن الرجل فاسد الاعتقاد، وله أطماع يحرض الناس على نقض بيعته ومحاربته والدعوة لمحمد بن الحنفية سراً، وبدأ بالغدر وطرد والي ابن الزبير! إزاء هذه المعطيات كان لزاما على ابن الزبير أن يتصدى لهذا الخطر الداهم، فأراح الله المسلمين بقتل هذا الداعية الكذاب.

الشبهة الخامسة

إهماله الدعاية والإعلام

يقصدون إهماله الشعراء ويستندون على بعض الروايات، نختار منها: الشاعر عبد الله بن الزَبير الأسدي بفتح الزاي، ذكره الذهبي: بفتح الزاي فهو الأسدي أسد خزيمة كوفي شاعر مشهور له نظم بديع، وهو الذي امتدح معاوية ثم قدم على ابن الزبير فلم يعطه شيئاً فقال: لعن الله ناقة حملتني إليك. فقال (ابن الزبير): إن

وراكبها، ولعن الله راكبها»[١]

وقال ابن الزبير لمن قال له: لعن الله ناقة حملتني إليك: «إنّ وراكبها» أي نعم ولعن راكبها.

إهماله للشاعر النابغة الجعدي:

قالوا: إهماله الشاعر النابغة الجعدي[٢] قيل عاش مئة وعشرين سنة وقيل مئة وثمانين عاما: وهو شاعر مخضرم له صحبة واسمه: حبان بن قيس بن جعدة بن مضر ويكنى أبا ليلى، دخل على عبد الله بن الزبير المسجد الحرام فأنشده:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا ** وعثمان الفاروق فارتاح معدمُ

أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى ** دجى الليل جوّابُ الفلاة عثمثمُ

ليتجبرَ منه جانباً زعزعت به ** صروفُ الليالي والزمانُ المصممُ

---

[١] الذهبي: سير أعلام النبلاء ـ ج ٣ ص ٣٨٣.

[٢] راجع: هو قيس، وقيل حسان، بن عبد الله بن عُدَس بن ربيعة الجعدي العامري من جنوب اليمن . كُنيّ بأبي ليلى ولُقب بالنابغة لأنه سكت عن الشعر ثلاثين سنة ثم نبغ في قوله في الاسلام . هو أقدم من النابغة الذبياني . عاش طويلاً ونادم المنذر أبا النعمان بن المنذر . قيل إنه كان في الجاهلية يصوم ويصلي ويستغفر وهجر عبادة الاصنام . وله ابيات يذكر فيها التوحيد والبعث والجنة والنار . وفد على النبي على رأس وفد من قومه فأسلم وأنشده قصيدته الرائية، فأعجب بها الرسول وقال له : أجدت ، لا يُفضض الله فاكَ . ورد ذكره في «سير أعلام النبلاء»: ((هو أبو ليلى شاعر زمانه له صحبة ووفادة ورواية وهو من بني عامر بن صعصعة. يقال: عاش مئة وعشرين سنة. وكان يتنقل في البلاد ويمتدح الأمراء وامتد عمره قيل عاش إلى حدود سنة سبعين. قال محمد بن سلام: اسمه قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة. ويقال: عاش مئة وثمانين سنة وقيل أكثر من ذلك. وشعره سائر كثير. وقيل: اسمه حيان بن قيس وكان فيه دين وخير)).

فقال له ابن الزبير: هون عليك أبا ليلى! فإن الشعر أهون وسائلك عندنا، لك في مال الله حقان؛ حق لرؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحق بشركتك أهل الإسلام في فيئهم. ثم أخذ بيده ودخل به دار النعم، فأعطاه قلائص سبعاً، وجملاً رجيلاً، وأوقر له الإبل براً وتمراً وثياباً»[١]

أقول: بداية لا نسلم بصحة خبر النابغة الجعدي رضي الله عنه لتجريح الرواة لأبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، ولو سلمنا جدلاً بصحة الخبر فإن الشاهد من الرواية السابقة قول ابن الزبير للنابغة: هون عليك أبا ليلى! فإن الشعر أهون وسائلك عندنا! فهذه العبارة لا يستدل منها على هوان الشعر عند ابن الزبير وإهماله له؛ بل هذه العبارة إجابة للنابغة الجعدي لأنه يطلب مالاً بهذا الشعر، فإن ابن الزبير يريد تحرير المقصد وأن يكون المدح أو الذم لله وحده، وليس لمطلب دنيوي! فهذا هو المفهوم الراقي في تقويم الأمور ونصح الرعية بعدم استجداء الولاة؛ بل إن ابن الزبير من خلال هذه الرواية أنه كان يسير على درب من سبقه من الخلفاء الراشدين؛ فلا تملق ولا تزلف للحاكم.

كما أن هذه الرواية تصطدم بعناية ابن الزبير بالشعر، بل هو نفسه كان شاعراً حتى في ساحة الوغى، وعلى مشارف الموت كان ابن الزبير يتمثل بأبيات للحصين بن الحمام، يرددها في حصاره الأخير:

---

[١] الخوري يوسف عون، وعبد الله العلايلي: أغاني الأغاني: مختصر أغاني الأصفهاني ـ مج١ ص٣٨٧.

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ** ولكن على أعقابنا تقطر الدما
نفلق هاما من رجال أعزة علينا ** وهم كانوا علينا أعق وأظلما

ودليل اهتمام ابن الزبير بالشعراء، أن عبيد الله بن قيس الرقيّات كان شاعر الدولة الزبيرية الأول: «وكان عبيد الله بن قيس الرقيات من أنصار آل الزبير منقطعاً إليهم (..) وهو شاعر قريش في الإسلام غير منازع، وقد كان أشد قريش أسر شعر (متانة وشدة)، في الإسلام بعد عبد الله بن الزبعرى، وفي الجاهلية. وكذلك كانت أفانين شعره كثيرة: له المدح البارح، والهجاء الشديد، والغزل الرائق (..) وقد كانت أكثر مدائحه وأحسنها في مصعب بن الزبير»[١]

ابن قيس الرقيات يمدح عبد الله بن الزبير:

ودخلنا الديار ما نشتهيها ** طمعاً أن ننالها أو ترانا
وابن أسماء خير من مسح الرك **ن فعالاً وخيرهم بنيانا
وإذا قيل منْ هجانُ قريش **كنت أنت الفتى وأنت الهجانا[٢]

أقول: فهل بعد هذا يقال إن عبد الله بن الزبير أهمل الشعراء وأهمل الدعاية؟! فأي دعاية يقصدون ومعظم منابر العالم الإسلامي تدعو لابن الزبير وتحت رايته؛ الحجاز ومصر واليمن والعراق وخراسان وفلسطين ومعظم الشام ما عدا الأردن. كانت تخطب لابن الزبير، ولن نزيد على ما ذكرناه آنفاً خشية الإطالة.

---

[١] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ـ ج١ ص ٤٤٧ ، ص ٤٤٨.

[٢] ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات تحقيق د. محمد يوسف نجم دار صادر بيروت ص١٥٦:

الشبهة السادسة

ادعاؤهم أنه كان بخيلاً

نلاحظ أن كثيراً من الكتاب كرروا هذه العبارة حيث صارت لازمة لابن الزبير!، ولا يكاد يخلو كتاب من ذكر هذه الصفة الذميمة من لدن الطبري حتى وقتنا الحاضر! وقد ذكرنا مقولة الدكتور ماهر حمادة آنفاً: «فقد كان بخيلاً، والعرب لا تدين لبخيل. كان يعطي للناس فيئ الله، وكأنه يقسم ميراثه من أبيه»[١]

وتعليقنا على هذه القضية يتلخص في النقاط التالية:

أولاً: في قصة النابغة الجعدي على افتراض صحتها، ما يعضد رأينا إذ أن ابن الزبيركان يسير على طريقة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فهل كان يعطي الصديق والفاروق الشعراء من بيت مال المسلمين؟!. وقصة عمر رضي الله عنه مع الشاعر الحطيئة[٢]

---

[١] ماهر حمادة: دراسات وثقية ص ٤٧.

[٢] ترجمة الحطيئة: في البداية والنهاية لابن كثير تحقيق الدكتور تركي بن عبد الله المحسن - ج١٠ من ص ٤٠١ - ٤٠٢ - كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة دار إحياء العلوم - بيروت - طبعة

شهيرة.. فتراجع في مظانها لم يعطه إلا لفقره ولحاجته.

وكذلك فعل عبد الله بن الزبير مع النابغة الجعدي، قال له كما في الرواية السابقة : « لك في مال الله حقان؛ حق لرؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحق بشركتك أهل الإسلام في فيئهم»[١]

هكذا كان يتعامل ابن الزبير مع مال المسلمين فلو أنه أعطى هذا الشاعر وغيره من مال المسلمين لقالوا إنه جواد كريم، رغم أنه ليس من كده ولا من حر ماله! ولربما قالوا العكس: من أين لابن الزبير من هذا المال؟، إنه يتصرف في مال المسلمين كأنه يتصرف في مال أبيه!! بعبارة أشد قولهم إن ابن الزبير يتصرف في مال المسلمين كأنه مال بدون صاحب!! .

ثانياً: الذي روج لهذه الصفة الذميمة هم الشعراء الذين لم يجدوا ضالتهم عند ابن الزبير، فلما سخطوا عليه احتضنهم الخصوم وأجزلوا لهم العطاء!! ومن ثم هجوا ابن الزبير في قصائد مدفوعة من خصومه وشاعت وانتشرت بعد استقرار ملك بني أمية!؛ فالتاريخ

رابعة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م - ص من ص ٢٠٣ - ص٢٠٨. ذكره ابن الأثير في أسد الغابة وقال: «ليس في هذا ما يدل على أنه صحابي، وإن كان قد أسلم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد بعده، ثم أسلم. ويؤيد أنه لم يكن له صحبة أنه عبسي، والذين وفدوا من عبس على النبي صلى الله عليه وسلم كانوا تسعة، وأسماؤهم معروفة. وليس منهم، لأن الوفود من القبائل كانوا أعيانها ورؤساءها، وأما الحطيئة فما زال مهيناً خسيساً، لم يبلغ محله أن يكون في الوفد»أهـ أسد الغابة - ابن الأثير - تحقيق خيري سعيد - المكتبة التوفيقية - القاهرة - ج٢ ص٤.

[١] ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص١٩٨.

يكتب على هوى المنتصر بغية تحسينه وسحق خصومه، وقد ذكرنا في مقال لنا (إعادة النظر في كتاب التاريخ الإسلامي): «إن الكثير من كتب التاريخ خضعت لهوى الحاكم إما رغبة في نوال ما عندهم أو رهبة في من سطوة الدولة أو بميل المؤرخ لتوجهات الدولة»[١]

وبمثل هذه الشبهات والطعون التي تقال على هؤلاء الخلفاء والقادة تصداقا لما ذكرناه من قبل: «إن كتابة التاريخ الإسلامي تعرضت لتشويه متعمد من قبل السلطة وكان الاخباريون والشعراء أدوات السلطة في التشويه، وقد أغفل العباسيون هذه الصفحة المضيئة في تاريخ هذا الخليفة المفترى عليه، كنا نود أن يردوا إليه اعتباره ويذبوا عنه ما وصمه به خصومه! لكنهم ساروا على درب من سبقهم فطفقوا يرددون نفس الأخبار والروايات وهم يعلمون أن ابن الزبير وتاريخه وسابقته وصحبته براء من هذه الصفات الذميمية.

لذلك نرى أن هوى الحكام وخشيتهم من ظهور لابن زبير آخر لغض الطرف عن إعادة الاعتبار لهذا الصحابي الجليل! فلا يريدون من يعكر عليهم صفو سلطتهم! فاكتفوا بإبراز صحبته، وفقهه وورعه وزهده مع شجاعته وجهاده. أما الجوانب الأخرى فتركوها للإخباريين!! وزادت حكايات بخل ابن الزبير في عصر بني بويه ٣٢٠ هـ إلى ٤٤٧ هـ. وكتاب الأغاني للأصفهاني طافح بمثل هذه الأكاذيب التي يعتمد عليها الرواة في طعن الصحابة وسادة الأمة رضي الله عنهم أجمعين.

[١] المنهاج: العدد الأول ص ٦٨.

إن الذي يقوي وجهة نظرنا أن قصة بخل ابن الزبير خلت منها سيرته الأولى أي قبل أن يبايع خليفة! وروج خصومه هذه الإشاعات وزادوا فيها خاصة بعد أن بويع له بالخلافة وبعد مقتله رضي الله عنه.

المبحث الرابع

أسباب فشل ابن الزبير في الاحتفاظ بخلافته

بعد هذا العرض السريع لأهم الشبهات والطعون التي ذكرها الكتاب في أسباب فشل ابن الزبير في الاحتفاظ بخلافته يكون قد استبان لنا ضعف هذه الأسباب التي ذكروها. لذلك نرى أن أهم الأسباب التي أدت إلى فشل ابن الزبير في الاحتفاظ بحكمه تتلخص في الآتي:

أولاً: حروب ابن الزبير على عدة جبهات في وقت واحد:

الجبهة الأولى: قتاله لأهل الشام بقيادة مروان ابن الحكم ثم ابنه عبد الملك.

الجبهة الثانية: حروبه ضد الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق في العراق

وخراسان.

الجبهة الثالثة: حروبه ضد المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب في العراق.

الجبهة الرابعة: حروبه ضد الروم وتأمينه الحدود خشية الإغارة على بلاد الإسلام.

ثانياً: توزيع قواد ابن الزبير على عدة جبهات: مثل المهلب بن أبي صفرة[١] فارس العرب والإسلام وكاسر شوكة الخوارج، يعتبر من أعظم قواد المسلمين في عصره، وهو الذي دوخ أهل الشرك وصارت له خبرة طويلة قتال الخوارج. وإبراهيم بن الأشتر وهو فارس ابن فارس أبوه الأشتر النخعي ويعتبر من أفتك قادة المسلمين، وقد انقلب على المختار الثقفي بعدما علم كذبه، وصار من قادة ابن الزبير رضي الله عنه. أما كبير القواد فهو فارس آل الزبير والإسلام فهو مصعب بن الزبير فقد كان مشغولاً بحرب عبد عبد الملك بن مروان وجند الشام وفي نفس الوقت يحارب المختار الثقفي.

---

[١] المهلّب بن أبي صفرة الأزدي وكنيته أبو سعيد، هو من أهم ولاة الأمويين على خراسان. عينه الحجاج عاملا على خراسان عام (٧٨هـ) وقام بفتوح واسعة فيما وراء بلاد النهر فقد فتح المهلب إقليم «الصغد» وغزا «خوارزم» وافتتح جرجان وطبرستان وغيرها توفي سنة ٨٣ هـ.

ثالثا: مقتل مصعب بن الزبير الساعد الأيمن لابن الزبير:

لقد ترجم الحافظ ابن كثير ترجمة في أحداث سنة ٧١ هجرية حيث قال:

«وهذه ترجمة مصعب بن الزبير رحمه الله وهو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أبو عبد الله القرشي – ويقال له : أبو عيسى أيضا – الأسدي وأمه الرباب بنت أنيف الكلبية. كان من أحسن الناس وجها، وأشجعهم قلبا، وأسخاهم كفا.

وقد حكى عن عمر بن الخطاب، وروى عن أبيه الزبير بن العوام، وسعد، وأبي سعيد الخدري، وروى عنه الحكم بن عتيبة، وعمرو بن دينار الجمحي، وإسماعيل بن أبي خالد، ووفد على معاوية، وكان ممن يجالس أبا هريرة، وكان من أحسن الناس وجها»أهـ[١]

قال فيه ابن قيس الرقيات:

إنما مصعب شهاب من الل   تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عز ليس فيه   جبروت منه ولا كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد أف   ـلح من كان همه الاتقاء

[١] ابن كثير: **البداية والنهاية ـ تحقيق التركي ـ ج١٢ ص١٤٣ وص١٤٤.**

لقد كان مصعب إذا ذكّره أحد بالله أو بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم: «قال الإمام أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا حماد بن سلمة، ثنا علي بن زيد قال: بلغ مصعبا عن عريف الأنصار شيء فهم به، فدخل عليه أنس بن مالك، فقال له: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: استوصوا بالأنصار خيرا – أو قال : معروفا – اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم، فألقى مصعب نفسه عن سريره وألصق خده بالبساط، وقال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرأس والعين فتركه. ومن كلام مصعب في التواضع أنه قال: العجب من ابن آدم كيف يتكبر، وقد جرى في مجرى البول مرتين؟! وقال محمد بن يزيد المبرد : سئل القاسم بن محمد عن مصعب فقال: كان نبيلا رئيسا نفيسا أنيسا»أهـ[١]

وأما عن كيفية مقتله:

قال ابن كثير: «لما تفرق عن مصعب جموعه قال له ابنه عيسى: لو اعتصمت ببعض القلاع، وكاتبت من بعد عنك مثل المهلب بن أبي صفرة وغيره فقدموا عليك، فإذا اجتمع لك ما تريد منهم لقيت القوم فإنك قد ضعفت جدا. فلم يرد عليه جوابا. ثم ذكر ما جرى للحسين بن علي، وكيف قتل كريما، ولم يُلق بيده، ولم يجد

[١] ابن كثير: **البداية والنهاية ـ تحقيق التركي ـ ج١٢ ص١٥٠، ص١٥١.**

من أهل العراق وفاء، وكذلك أبوه وأخوه، ونحن ما ما وجدنا لهم وفاء»أهـ[١]

أقول: هكذا كانت أخلاق مصعب وشجاعته ما كان ليفر ويترك من بقي معه من أصحابه خيث أصر على القتال ورفض فكرة الانحياز إلى إحدى القلاع وقد وصف لنا الاخباريون هذه المرثية الحزينة لبطل من أبطال الإسلام؛ فقط وصف لنا صاحب البداية والنهاية:

«ثم انهزم أصحابه، وبقي في قليل من خواصه، ومال الجميع إلى عبد الملك، وقد كان عبد الملك يحب مصعبا حباً شديداً، وكان خليلاً له قبل الخلافة، فقال لأخيه محمد: اذهب إليه فآمِنْه، فجاءه، فقال له: يا مصعب قد آمنك ابن عمك على نفسك وولدك ومالك وأهلك، فاذهب حيث شئت من البلاد، ولو أراد بك غير ذلك لكان، فقال مصعب: قضي الأمر، إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً. فتقدم ابنه عيسى فقاتل، فقال محمد بن مروان يا بن أخي لا تقتل نفسك. ثم ذكر من قوله ما تقدم، ثم قاتل حتى قتل، رحمه الله، ثم ذكر من قتل أبيه

[١] ابن كثير: **البداية والنهاية ـ تحقيق التركي ـ ج١٢ ص١٣٩**

بعده، كما تقدم»أهـ[١]

قال ابن كثير:

« ولما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك بكى وقال: والله ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم! ولقد كانت المحبة والحرمة بيننا قديمة، متى تلد النساء مثل مصعب؟ ثم أمر بمواراته، ودفنه هو وابنه وإبراهيم بن الأشتر في قبور بمسكن بالقرب من الكوفة. قال المدائني : وكان مقتل مصعب بن الزبير يوم الثلاثاء الثالث عشر من جمادى الأولى أو الآخرة من سنة إحدى وسبعين في قول الجمهور ، وقال المدائني : سنة ثنتين وسبعين . والله أعلم»أهـ[٢]

تقدير عبد الملك بن مروان لمصعب واحترامه له رغم انتصاره عليه:

«وقال الزبير بن بكار: حدثني فليح بن إسماعيل، وجعفر بن أبي بشير، عن أبيه. قال: لما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك قال:

لقد أردى الفوارس يوم عبسٍ غلامٌ غير مناع المتاع
ولا فرحٌ بخيرٍ إن أتاه ولا هلع من الحدثان لاع
ولا رقابةً والخيل تعدو ولا خالٌ كانبوب اليراع

فقال الرجل الذي جاء برأسه: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته والرمح في يده تارة والسيف تارة يفري بهذا، ويطعن بهذا لرأيت رجلاً يملأ القلب

[١] ابن كثير: **البداية والنهاية ـ تحقيق التركي ـ ج١٢ ص١٣٩ وص١٤٠.**

[٢] ابن كثير: **البداية والنهاية ـ تحقيق التركي ـ ج١٢ ص١٤٠.**

والعين شجاعة، لكنه لما تفرقت عنه رجاله وكثر من قصده وبقي وحده ما زال ينشد:

وإني على المكروه عند حضوره أكذب نفسي والجفون فلم تغض
وما ذاك من ذلٍ ولكن حفيظةٌ أذبُّ بها عند المكارم عن عرضي
وإني لأهل الشر بالشر مرصدٌ وإني لذي سلمٍ أذلُّ من الأرض

فقال عبد الملك: كان والله كما وصف به نفسه وصدق، ولقد كان من أحب الناس إليّ، وأشدهم لي ألفة ومودة، ولكن الملك عقيم.»أهـ[١]

رثاء ابن قيس الرقيات لمصعب:

«قال عبيد الله بن قيس الرقيات يرثي مصعبا :

لقد أورث المصرين خزيا وذلة قتيل بدير الجاثليق مقيم
فما نصحت لله بكر بن وائل ولا صدقت يوم اللقاء تميم
ولو كان بكريا تعطف حوله كتائب يغلي حميها ويدوم
ولكنه ضاع الذمام ولم يكن بها مضري يوم ذاك كريم
جزى الله كوفيا هناك ملامة وبصريهم إن المليم مليم
وإن بني العلات أخلوا ظهورنا ونحن صريح بينهم وصميم
فإن نفْنَ لا يبقى أولئك بعدنا لذي حرمة في المسلمين حريم»أهـ

[١] ابن كثير البداية والنهاية ج١٢ ص١٥٣.

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات يرثي مصعبا أيضا :

نعت السحائب والغمام بأسرها   جسدا بمسكن عاري الأوصال

تمسي عوائذه السباع وداره   بمنازل أطلالهن بوالي

رحل الرفاق وغادروه ثاويا   للريح بين صبا وبين شمالأهـ

[١]

ومن كلام مصعب في التواضع أنه قال : العجب من ابن آدم كيف يتكبر ، وقد جرى في مجرى البول مرتين ؟ !وقال محمد بن يزيد المبرد : سئل القاسم بن محمد عن مصعب فقال : كان نبيلا رئيسا نفيسا أنيسا «أهـ[٢]

خطبة عبد الله بن الزبير في مقتل أخيه مصعب

قال ابن جرير: وذكر أبو زيد، عن أبي غسان محمد بن يحيى، حدثني مصعب بن عثمان قال : لما انتهى إلى عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب، قام في الناس خطيبا فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، ألا وإنه لم يذل الله من كان الحق معه،

[١] ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص١٥٦

[٢] ابن كثير البداية والنهاية ج١٢ ص١٤٩ وص١٥٠ وص١٥١.

وإن كان فردا وحده، ولن يفلح من كان وليه الشيطان وحزبه ، ولو كان معه الأنام طرا، ألا وإنه أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا، أتانا قتل مصعب رحمه الله ، فأما الذي أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة ، وأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة به، ثم يرعوي من بعدها، وذو الرأي جميل الصبر كريم العزاء، ولئن أصبت بمصعب فلقد أصبت بالزبير قبله، وما أنا من عثمان بخلو مصيبة، وما مصعب إلا عبد من عبيد الله، وعون من أعواني، ألا وإن أهل العراق أهل الغدر والنفاق ، أسلموه وباعوه بأقل الثمن ، فإن يقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو أبي العاص; والله ما قتل رجل في زحف في الجاهلية ولا في الإسلام، وما نموت إلا بأطراف الرماح أو تحت ظل السيوف، ألا وإن الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا لا آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تدبر لا أبك عليها بكاء الحزين المهين، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم»أهـ[١]

ومن هؤلاء القواد الأحنف بن قيس مضرب المثل في الحلم والحكمة والشجاعة. الأحنف بن قيس الذي قال عنه معاوية

---

[١] ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص١٥٧

رضي الله عنه: «الأحنف بن قيس إذا غضب غضبه له مئة ألف لغضبه ولا يسألون لم غضب»[١]

هذه حقيقة يجب أن نعترف بها لولا تعدد هذه الجبهات لسحق قواد ابن الزبير جيش ابن مروان. ومن ثم لتغير التاريخ ولقرأناه بنفس ونظرة أخرى بل ولرأيناه بمنظر آخر لكن قدر الله كان مقدوراً، ولله في خلقه شؤون.

أما على الجانب الآخر فقد وقف عبد الملك بن مروان يترقب وينتظر نتائج المعارك بما ساعده في الاحتفاظ بكامل قواته. وكان ينفق الأموال ويشتري ذمم بعض الجند ثم حانت له الفرصة وأرسل جيشاً إلى العراق لقتال ابن الزبير الذي كان مشغولاً بحرب بقايا شيعة المختار الثقفي، وانشغال المهلب بن أبي صفرة بحرب الخوارج في خراسان، وانتهت المعركة في العراق لصالح عبد الملك بن مروان وقتل ساعد ابن الزبير الأيمن وأعظم قواده؛ مصعب الذي رثاه الشعراء وترحم عليه أهل الإسلام وله ترجمة طيبة في كتب التاريخ والسير والتراجم.

[١] الذهبي: تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص ٧٧٩ وما بعدها.

ترجمة الخليفة الشهيد المظلوم عبد اللّه بن الزبير بن العوام رضي اللّه عنه

قال الحافظ ابن كثير: «وهذه ترجمة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أبو بكر، ويقال له: أبو خبيب، القرشي الأسدي، أول مولود ولد بعد الهجرة»[١]

وقال عنه الحافظ ابن عبد البر: «عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي. يكنى أبا بكر. وقال بعضهم فيه أبو بكير ذكر ذلك أبو أحمد الحاكم الحافظ في كتابه في الكنى. والجمهور من أهل السير وأهل الأثر على أن كنيته أبو بكر وله كنية أخرى أبو خبيب. وكان أسن ولده. قال أبو عمر: كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم جده أبي أمه أبي بكر الصديق هاجرت أمه أسماء بنت أبي بكر من مكة وهي حامل بابنها عبد الله بن الزبير فولدته في سنة اثنتين

---

[١] ابن كثير البداية والنهاية ـ ج١ ص٦٨١ وأيضاً: ترجمة عبد الله بن الزبير كاملة في تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص ٩٢٨ وما بعدها. ترجمة ابن الزبير لخليفة بن خياط تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري (واقعة راهط) ص٩٥٢ وما بعدها. كتاب شفاء الغرام للحافظ أبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي المتوفى ٢٣٨هـ ص٣٦٢ وما بعدها. مختصر حول ابن الزبير من كتاب المنتظم لابن الجوزي المتوفى ٧٩٥هـ ج٦ ص٨٣١ وما بعدها. كتاب مختصر تاريخ دمشق لابن منظور المتوفى ١١٧هـ مج١١ـ٢١ ص٠٧١ ومابعدها. وفيات الأعيان ٣ج ص٥٧ وما بعدها. كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ج٣ ص٧٤٦١ وما بعدها. ابن خلكان وفيات الأعيان ٣ج ص٥٧ وما بعدها.

من الهجرة بعشرين شهراً من التاريخ. وقيل: إنه ولد في السنة الأولى وهو أول مولود في الإسلام من المهاجرين بالمدينة. حدثنا خلف بن قاسم حدثنا الحسن بن رشيق حدثنا الدولابي حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة قالت: فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته بقباء. ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته في حجره فدعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: ثم حنكه بالخبزة ثم دعا له وبرّك عليه وكان أول مولود في الإسلام للمهاجرين بالمدينة.

قالت: ففرحوا به فرحاً شديداً وذلك أنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم. حدثنا خلف بن قاسم حدثنا أبو ميمون البجلي حدثنا أبو زرعة الدمشقي حدثنا أبو نعيم حدثنا محمد بن شريك المكي عن ابن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير قال: سميت باسم جدي أبي بكر وكنيت بكنيته. وشهد الجمل مع أبيه وخالته وكان شهماً ذكرا شرساً ذا أنفة وكانت له لسانة وفصاحة وكان أطلس لا لحية له ولا شعر في وجهه" أهـ[١]

---

[١] ابن عبد البر: الاستيعاب: تحقيق الشيخ علي محمد عوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢ ـ مج ٣ ص ٣٩ الترجمة رقم ١٥٥٣. بتصرف يسير.

قال عنه العلامة ابن الأثير: »عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة القرشي الأسدي، أبو بكر. وله كنية أخرى: أبو خبيب –بالخاء المعجمة المضمومة– وهو اسم أكبر أولاده –وقيل: كان يكنيه بذلك من يعيبه. وأمه أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة ذات النطاقين وجدته لأبيه: صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخديجة بنت خويلد عمة أبيه الزبير بن العوام بن خويلد. وخالته عائشة أم المؤمنين. وهو أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة للمهاجرين، فحنّكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرة لاكها في فيه، ثم حنّكه بها، فكان ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم أول شيء دخل جوفه، وسماه عبد الله، وكناه أبا بكر بجده أبي بكر الصديق »وسماه باسمه« وهاجرت أمه إلى المدينة وهي حامل به، وقيل: حملت به بعد ذلك وولدته بالمدينة على رأس عشرين شهراً من الهجرة. وقيل ولد في السنة الأولى. ولما ولد كبر المسلمون وفرحوا به كثيراً، لأن اليهود كانوا يقولون: قد سحرناهم فلا يولد لهم ولد. فكذبهم الله سبحانه وتعالى. وكان صواماً قواماً، طويل الصلاة، عظيم الشجاعة. وأحضره أبو الزبير عند رسول

الله صلى الله عليه وسلم ليبايعه وعمره سبع سنين أو ثماني سنين، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم مقبلاً تبسم، ثم بايعه. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث، وعن أبيه، وعن عمر، وعثمان، وغيرهما. روى عنه أخوه عروة وابناه: عامر وعباد، وعبيدة السلماني، وعطاء بن أبي رباح، والشعبي وغيرهم. وبويع عبد الله بن الزبير بالخلافة بعد موت يزيد، وأطاعه أهل الحجاز، واليمن، والعراق، وخراسان، وجدد عمارة الكعبة، وأدخل فيها الحجر، فلما قتل ابن الزبير أمر عبد الملك بن مروان أن تعاد عمارة الكعبة إلى ما كانت أولاً، ويخرج الحجر منها. ففعل ذلك فهي هذه العمارة الباقية. «أهـ[١]

وعن شجاعة ابن الزبير يقول ابن الأثير:

«وغزا عبد الله بن الزبير إفريقية مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فأتاهم جرجير ملك إفريقية في مائة ألف وعشرين ألفاً، وكان المسلمون في عشرين ألفاً، فسقط في أيديه، فنظر عبد الله فرأى جرجير وقد خرج من عسكره، فأخذ معه جماعة من المسلمين وقصده فقتله، ثم كان الفتح على يده»أهـ [٢]

---

[١] ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ تحقيق خيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ـ القاهرة ـ ج٣ ص٢٢٥,

[٢] ابن الأثير: أسد الغابة ـ ج٣ ص٢٢٥,

قال عنه الحافظ الذهبي:

عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة ، أمير المؤمنين، أبو بكر؛ وأبو خبيب، القرشي الأسدي المكي ثم المدني، أحد الأعلام، ولد الحواري الإمام أبي عبد الله، ابن عمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحواريه. مسنده نحو من ثلاثة وثلاثين حديثا. اتفقا له على حديث واحد، وانفرد البخاري بستة أحاديث، ومسلم بحديثين .كان عبد الله أول مولود للمهاجرين بالمدينة. ولد سنة اثنتين وقيل: سنة إحدى.

وله صحبة ، ورواية أحاديث. عداده في صغار الصحابة، وإن كان كبيرا في العلم، والشرف، والجهاد، والعبادة. وقد روى أيضا عن أبيه، وجده لأمه الصديق، وأمه أسماء، وخالته عائشة، وعن عمر، وعثمان، وغيرهم. حدث عنه أخوه عروة الفقيه، وابناه عامر، وعباد، وابن أخيه محمد بن عروة، وعبيدة السلماني، وطاوس، وعطاء، وابن أبي مليكة، وعمرو بن دينار، وثابت البناني ، وأبو الزبير المكي ، وأبو إسحاق السبيعي، ووهب بن كيسان، وسعيد بن ميناء، وحفيداه: مصعب بن ثابت بن عبد الله، ويحيى بن عباد بن عبد الله، وهشام بن عروة، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير وآخرون. وكان فارس قريش في زمانه، وله مواقف مشهودة. قيل:

إنه شهد اليرموك وهو مراهق، وفتح المغرب، وغزو القسطنطينية، ويوم الجمل مع خالته. قيل: إن ابن الزبير أدرك من حياة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثمانية أعوام وأربعة أشهر، وكان ملازما للولوج على رسول الله ، لكونه من آله، فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة. وفي البخاري عن عروة، أن الزبير أركب ولده عبد الله يوم اليرموك فرسا وهو ابن عشر سنين، ووكل به رجلا.»أهـ[١]

قال الحافظ الذهبي عن شجاعته:

«قال ابن الزبير: هجم علينا جرجير في عشرين ومائة ألف ، فأحاطوا بنا ونحن في عشرين ألفا – يعني: نوبة إفريقية. قال: واختلف الناس على ابن أبي سرح، فدخل فسطاطه، فرأيت غرة من جرجير؛ بصرت به خلف عساكره على برذون أشهب، معه جاريتان تظللان عليه بريش الطواويس ، بينه وبين جيشه أرض بيضاء ، فأتيت أميرنا ابن أبي سرح، فندب لي الناس، فاخترت ثلاثين فارسا، وقلت لسائرهم: البثوا على مصافكم ، وحملت، وقلت لهم : احموا ظهري ، فخرقت الصف إلى جرجير، وخرجت صامدا، وما يحسب هو ولا أصحابه إلا أني رسول إليه، حتى دنوت منه، فعرف الشر، فثابر برذونه موليا، فأدركته، فطعنته، فسقط، ثم احتززت رأسه فنصبته على رمحي، وكبرت، وحمل المسلمون، فارفض العدو ومنح الله أكتافهم»أهـ.

---

[١] الذهبي: سير أعلام النبلاء ـ مكتب الصفا ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢٤هـ ـ ج٣ ص٥١٣ وص٥١٤.

حوار ابن الزبير مع أمه

قبل مقتله رضي اللّه عنهما

قال ابن كثير:

«وما زال أهل مكة يخرجون إلى الحجاج بالأمان ويتركون ابن الزبير حتى خرج إليه من عشرة آلاف، فأمنهم وقَلَّ أصحاب ابن الزبير جداً، حتى خرج إلى الحجاج حمزة وخبيب ابنا عبد الله بن الزبير، فأخذا لأنفسهما أماناً من الحجاج فأمنهما.

ودخل عبد الله بن الزبير على أمه فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا، فما رأيك؟

فقالت: يا بني أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين وإلى كم خلودكم في الدنيا؟ القتل أحسن.

فدنا منها فقبّل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ثم قال: والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرة مع بصيرتي.

فانظري يا إماه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك، وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يَجُرْ في حكم الله، ولم يَغْدُرْ في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندي آثر من رضى ربي عز وجل.

اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزية لأمي لتسلو عني.

فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً، إن تقدمتني أو تقدمتك، ففي نفسي اخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك.

فقال: جزاك الله يا أمه خيراً فلا تدعي الدعاء قبل وبعد.

فقالت: لا أدعه أبداً لمن قتل على باطل فلقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فقابلني في عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين.

ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه واعتنقها ليودعها –وكانت قد أضرت في آخر عمرها – فوجدته لابساً درعاً من حديد.

فقالت: يا بني ما هذا لباس من يريد ما نريد من الشهادة !!

فقال: يا أماه إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به.

فقالت: لا يا بني ولكن انزعه فنزعه، وجعل يلبس بقية ثيابه

ويتشدد وهي تقول: شمر ثيابك، وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه لئلا تبدو عورته إذا قتل.

وجعلت تذكره بأبيه الزبير، وجده أبو بكر الصديق، وجدته صفية بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترجيه القدوم عليهما إذا هو قتل شهيداً.

ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها رضي الله عنهما وعن أبيه وأبيها.»أهـ[١]

كيف قتل ابن الزبير

قال الذهبي في العبر فيمن توفي سنة ٧٣هـ:

«وفيها نازل الحجاج ابن الزبير فحاصره. ونصب المنجنيق على أبي قبيس. ودام القتال أشهراً إلى أن قتل عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي أمير المؤمنين وفارس قريش وابن حواري الرسول صلى الله عليه وسلم؛ كان صواماً قوماً بطلاً شجاعاً فصيحاً مفوهاً. قتل في جماد الأولى. وطيف برأسه»أهـ[٢]

---

[١] ابن كثير: البداية والنهاية ـ ج١٢ ص ١٧٩ إلى ١٨١.

[٢] الذهبي: العبر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ج١ ـ ص٦٠

قال ابن الأثير: «وبقي ابن الزبير خليفةً إلى أن ولي عبد الملك بن مروان بعد أبيه، فلما استقام له الشام ومصر جهز العساكر، فسار إلى العراق فقتل مصعب بن الزبير، وسيّر الحجاج بن يوسف إلى الحجاز، فحصر عبد الله بن الزبير بمكة، أول ليلة من ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين، وحجّ بالناس الحجاج ولم يطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، ونصب منجنيقاً على حبل أبي قبيس فكان يرمي الحجارة إلى المسجد، ولم يزل يحاصره إلى أن قتل في النصف من جمادى الآخرة، من سنة ثلاث وسبعين.

قال عروة بن الزبير: لما اشتد الحصر على عبد الله قبل قتله بعشرة أيام، دخل على أمه أسماء وهي شاكية، فقالت له: لعلك تمنّيته لي، ما أحبّ ان أموت حتى يأتي على أحد طرفيك، إما قتلت فأحتسبك، وإما ظفرت بعدوك فتقر عيني. فضحك.

فلما كان اليوم الذي قتل فيه دخل عليها فقالت له: يا بني، لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذل مخافة القتل، فوالله لضربةٌ بسيف في عز خيرٌ من ضربة بسوط في ذل. وخرج على الناس وقاتلهم في المسجد، فكان لا يحمل على ناحية إلا هزم من فيها من جند الشام، فأتاه حجر من ناحية الصفا، فوقع بين عينيه، فنكس رأسه وهو يقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ** ولكن على اقدامنا يقطر الدما

ثم اجتمعوا عليه فقتلوه. فلما قتلوه كبر أهل الشام، فقال عبد الله

بن عمر، المكبرون عليه يوم ولد، خير من المكبرين عليه يوم قتل.

وقال يعلى بن حرملة: دخلت مكة بعد ما قتل ابن الزبير، فجاءت أمه امرأة طويلة عجوزاً مكفوفة البصر تقاد، فقالت للحجاج: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فقال لها الحجاج: المنافق؟ قالت: والله ما كان منافقاً، ولكنه كان صوّاماً قواماً وصولاً. قال: انصرفي فإنك عجوز قد خرفت. فقالت: لا والله ما خرفت، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: »يخرج من ثقيف كذّابٌ ومبير» أما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت المبير. تعني بالكذاب المختار بن أبي عبيد.

وكان ابن الزبير كوسجاً (خفيف اللحية) واجتاز به ابن عمر وهو مصلوب، فوقف وقال: السلام عليك أبا خبيب ودعا له ثم قال: أما والله إن أمة أنت شرّها لنعم الأمة. يعني أن أهل الشام كانوا يسمونه ملحداً ومنافقاً إلى غير ذلك»[١]

قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني المتوفى ٤٣٠هـ:

"بايع النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان، كان صواماً قواماً، بالحق قوالاً، وللرحم وصالاً، شديداً على الفجرة، ذليلاً للأتقياء البررة، قتله الحجاج بن يوسف بمكة، وصلبه في جمادى

[١] ابن الأثير: أسد الغابة ـ ج٣ ص ٢٢٧ و٢٢٨.

الأخرة سنة ثلاث وسبعين، وكان ذا جمة طويلة يفرق"أهـ[١]

آخر خطبة لابن الزبير قبل استشهاده

قال ابن كثير: «فلما كان ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة، بات ابن الزبير يصلي طول ليلته، ثم جلس فاحتبى بحميلة سيفه فأغفى ثم انتبه مع الفجر على عادته، ثم قال: أذن يا سعد. فأذن عند المقام، وتوضأ ابن الزبير، ثم صلى ركعتي الفجر، ثم أقيمت الصلاة فصلى الفجر، ثم قرأ سورة «ن» حرفًا حرفًا، ثم سلم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال لأصحابه: ما أراني اليوم إلا مقتولاً، فإني رأيت في منامي كأن السماء فرجت لي، فدحلتها، وإني والله قد مللت الحياة وجاوزت سني اثنتين وسبعين سنة، اللهم إني أحب لقاءك فأحبَّ لقائي. ثم قال: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم فكشفوا وجوههم وعليهم المغافر، فحرضهم وحثهم على القتال والصبر، ثم نهض بهم. فحمل وحملوا حتى كشفوهم إلى الحجون، فجاءته آجُرّة فأصابته في وجهه، فارتعش لها، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه تمثل بقول بعضهم:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما»أهـ[٢]

---

[١] أبو نعيم الأصبهاني: معرفة الصحابة ـ تحقيق عادل العزازي ـ دار الوطن للنشر ـ الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ح٣ ص١٦٤٧.

[٢] البداية والنهاية: ج١٢ ص١٨٣

شهادة الصحابي الجليل
عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنهم

«وسئل ابن عباس عن ابن الزبير فقال: كان قارئاً لكتاب الله، متبعاً لسنة رسول الله، قانتاً لله، صائماً في الهواجر من مخافة الله، ابن حواري رسول الله، وأمه بنت الصديق، ةخالته عائشة، حبيبة حبيب الله، زوجة رسول الله، فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله.»أهـ[١]

وقد رثي ابن الزبير وأخوه مصعب بمراث كثيرة حسنة بليغة، من ذلك قول معمر بن أبي معمر الذهلي يرثيهما بأبيات:

لعمرك ما أبقيت في الناس حاجة	ولا كنت ملبوس الهدى متذبذباً
غداة دعاني مصعب فأجبته	وقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً
أبوك حواريّ الرسول وسيفه	فأنت بحمد الله من خيرنا أبا
وذاك أخوك المهتدى بضيائه	بمكـــــة يدعونا دعاء مثوباً
ولم أك ذا وجهين وجه لمصعب	مريض ووجه لابن مروان إذ صبا
وكنت امرأ ناصحته غير مؤثر	عليه ابن مروان ولا متقرباً
إليه بما تقذى به عين مصعب	ولكنني ناصحت في الله مصعباً
إلى أن رمته الحادثات بسهمها	فيالله سهماً ما أسد وأصوباً
فإن يك هذا الدهر أردى بمصعب	وأصبح عبد الله شلواً ملحباً

[١] البداية والنهاية: ج١٢ ص١٨٣

فكل امرئ حاس من الموت جرعة　　　وإن حاد عنها جهده وتهيباً»أهـ

[١]

قال العلامة ابن الجوزي المتوفى ٥٩٧هـ: «دخل عبد الله بن عمر المسجد وابن الزبير قد قتل وصلب، فقيل له: هذه أسماء بنت أبي بكر في المسجد فمال إليها وقال: اصبري فإن هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فقالت: وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل»أهـ[٢]

موعظة لابن الزبير

«عن وهب بن كيسان قال: كتب إلي عبد الله بن الزبير: أما بعد فإن لأهل التقوى علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم، من صبر على البلاء، ورضي بالقضاء، وشكر النعماء، وذل لحكم القرآن، وإنما الإمام كالسوق؛ ما نفق فيها حمل إليها، إن نفق الحق عنده حمل إليه وجاءه أهل الحق، وإن نفق عنده الباطل جاءه أهل الباطل»أهـ[٣]

وساق ابن الجوزي بسنده: «حصر ابن الزبير ليلة هلال ذي

---

[١] البداية والنهاية ج١٢ ص١٥٨

[٢] ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ج٦ ص١٤٠.

[٣] ابن الجوزي: صفة الصفوة ـ تحقيق طارق محمد عبد المنعم ـ دار ابن خلدون ـ مج١ ص٢٥٣.

القعدة سنة ثنتين وسبعين وستة أشهر وسبع عشرة ليلة، ونصب الحجاج المنجنيق يرمي به أحث الرمي، وألح عليهم بالقتال من كل وجه وحبس عنهم الميرة، وحصرهم أشد الحصار. فقامت أسماء يوماً فصلت ودعت فقالت: اللهم لا تخيب عبد الله بن الزبير، اللهم ارحم ذلك السجود والنحيب والظمأ في تلك الهواجر. وقتل يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة»[١]

هكذا سطرالصحابي الجليل الشهيد المظلوم خليفة المسلمين؛ عبد الله بن الزبير وأصحابه صفحة مشرفة في في سماء التاريخ وجبين الزمان. فلولا توفيق الله لابن الزبير الذي كسر شوكة الخوارج، وأنهى الله به شوكة المختار الثقفي الكذاب؛ لا ندري ماذا عسى مصير الأمة سيكون لو انتصر الخوارج أو المختار الثقفي على جيش ابن الزبير؟!. فهل كان في مقدور جيش الشام أن يدفع هذا الخطر الداهم؟! ألم يقتل المختار الثقفي في غداة واحدة معظم قواد عبد الملك بن مروان مثل عبيد الله بن زياد، والحصين بن نمير، وذو الكلاع، وعمر بن سعد وخلق كثير من جند الشام.

إن الحقيقة المؤلمة أن زمن ابن الزبير، قد انتهى وما عادت سيرة

---

[١] ابن الجوزي: صفة الصفوة ـ مج١ ص٢٥٤ وص٢٥٥.

الراشدين والأخلاق الحميدة ومعاملة الناس بسياسة الصديق والفاروق تحدي!؛ فقد دخل خلق جديد وأمم كثيرة في الإسلام وتغيرت القيم والمثل!، وما عاد الناس يطيقون أن يعاملوا بالطريقة العمرية!، وهذا ما يفسر لنا ما حدث من قبل مع الحسن بن علي رضي الله عنه؛ سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرغم علمه وشجاعته وزهده وورعه، يتخلى عنه الناس ويصلح الله به الفريقين. مصداقاً لمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم له: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِنَّمَا ثَبَتَ لَنَا سَمَاعُ الْحَسَنِ مِنْ أَبِي بَكْرَةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ»أهـ[١]

فهي صورة من أرقى درجات الرقي الخلقي والعزوف عن زهرة هذه الدنيا وزخرفها واختيار ما هو أبقى.

فإذا كان ابن الزبير فشل بالاحتفاظ بحكمه فإنه لم يفشل إن شاء الله في الاحتفاظ بما عند الله من نعيم سرمدي وحياة أبقى وأسمى. فقد كان مقتل ابن الزبير إيذاناً بحلول عهد جديد وقيم جديدة عن سير الخلفاء الراشدين!. لقد أراد ابن الزبير أن يعيد للحجاز هيبته وثقله الديني، فلم يفلح في نهاية المطاف.

لذلك لا نعجب من إصراراه على الاحتفاظ بمركز الحجاز التاريخي من

---

[١] البخاري كتاب الصلح رقم الحيث ٢٧٠٤ ترقيم الموسوعة الحديثية

الناحية الدينية. فالرجل لم يكن جاهلاً بموقع الحجاز الجغرافي ويعرف مدى حاجة مكة إلى غيرها من الأمصار، ولكنه أراد أن يعيد لهذا المكان المقدس هيبته بعد أن حلت الفوضى في ربوع أرض الإسلام!. فماذا كانت النتيجة عندما اختار الحسين رضي الله عنه أرض العراق! تخلى عنه أنصاره وأشياعه وقتل الحسين في كربلاء! فصار دمه لعنة على هذه الأمة إلى وقتنا الحاضر من تفرق وتشرذم .

أراد ابن الزبير أن يعيد للحجاز وللحرمين الهيبة والوقار والثقل الشرعي لعلمه بما حدث لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبما حدث لولده الحسن عندما خذله أشياعه ومريدوه من أهل العراق!. فهل يقال بعد كل هذا أن ابن الزبير لم يكن ذا نظر في عواقب الأمور!. أعتقد أن المعركة لو انتهت لصالح ابن الزبير لقالوا وحللوا غير الذي نقرأه اليوم في كتبهم وأبحاثهم! ولكن هكذا يكتب التاريخ؛ يكتب بهوى المنتصر وبشروطه!. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

خلافة راشدة أم خلافة على منهاج النبوة

هل يعد ابن الزبير من الخلفاء الراشدين؟ وهل خلافته على منهاج النبوة؟ إذا كنا نسلم بأن ابن الزبير كان خليفة زمانه إلى أن قتل؟ فلماذا لا نعده من الخلفاء الراشدين؟

قبل أن نشرع في إلقاء الضوء على هذه القضية نستعرض بعض الأحاديث الآتية:

ورد في صحيح البخاري: حيث ساق بسنده عن جابر بن سمرة قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يقوم اثنا عشر أميراً فقال كلمة لم أسمعها. فقال أي أنه كلهم من قريش» الحديث رقم ٦٦٨٢ بترقيم الموسوعة الحديثية.

وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة. قال ثم قال بكلام خفي علي. فقلت لأبي ما قال: كلهم من قريش» الحديث رقم ٣٣٩٣ بترقيم الموسوعة. وفي صحيح مسلم أيضاً انطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ومعي أبي فسمعته يقول لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة. فقال كلمة صمَّنِيها الناس فقلت لأبي ما قال؟ قال كلهم من قريش» الحديث ٣٣٩٧ بترقيم الموسوعة.

وفي سنن أبي داود: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا زال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمة. فسمعت كلاماً من النبي صلى الله عليه وسلم لم أفهمه قلت أبي ما يقول؟ قال كلهم من قريش» الحديث رقم ٣٧٣٧ بترقيم الموسوعة.

وبعد حتى لا يتبادر إلى الذهن تسآال ما علاقة هذه الأحاديث بموضوع بحثنا؟

مما لا شك فيه أننا سقنا هذه الأحاديث لعلاقتها بصميم موضوعنا ولتعضيد وجهة نظرنا في أن دولة ابن الزبير كانت خلافة راشدة. وقد أفاض الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث في كتاب الأحكام في فتح الباري وعدّ ابن الزبير رضي الله عنه ضمن الإثني عشر خليفة الذين تجتمع عليهم الأمة. يقول ابن حجر بعد استعراضه لآراء العلماء وشروحهم لهذا الحديث برواياته المختلفة وعلى تقدير ذلك فالأولى أن يحمل قوله :»يكون بعدي اثنا عشر خليفة على الحقيقة البعدية فجميع من ولي الخلافة من الصديق إلى عمر بن عبد العزيز أربعة عشر نفساً. منهم اثنان لم تصح ولايتهما ولم تطل مدتهما وهما معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم والباقون اثنا عشر نفساً على الولاء كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت وفاة عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومئة وتغيرت الأحوال بعده وانقضى القرن الأول الذي هو خير القرون ولا يقدح في ذلك قولهم «يجتمع عليه الناس»! لأنه يحمل على الأكثر الأغلب لأن هذه الصفة لم تفقد منهم إلا في الحسن بن علي وعبد الله بن الزبير مع صحة ولايتهما والحكم بأن من خالفهما لم يثبت استحقاقه إلا بعد تسلم الحسن وبعد قتل ابن الزبير والله أعلم. وكانت الأمور في غالب أزمنة هؤلاء الإثني عشر

منتظمة وإن وجد في بعض مدتهم خلاف ذلك فهو بالنسبة إلى الاستقامة نادر والله أعلم»أهـ[1]

نخلص من كلام ابن حجر الآتي: أن الحسن وابن الزبير ضمن الإثني عشر خليفة مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة.

صحة بيعة ابن الزبير وبطلان بيعة مروان بن الحكم وعدم احتساب مدة معاوية بن يزيد (معاوية الثاني) وبطلان ولاية عبد الملك بن مروان في الدولة الأولى أي إلى حين مقتل ابن الزبير رضي الله عنه سنة ٧٣ هـ فمن هنا صحة بيعة عبد الملك بن مروان.

أما أن ابن الزبير يستحق أن يقال عنه خليفة راشد بل هو أولى من عمر بن عبد العزيز رحمه الله لاعتبارات عدة:

أولاً: علو منزلة ابن الزبير لشرف صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم. بالإضافة إلى أنه لم يكن صحابياً عادياً ثم كان من فقهاء وعلماء الصحابة ومن العبادلة الأربعة المشهورين بالفتوى وبالفقه والعلم من الصحابة.

ثانياً: إنه ولي أمر المسلمين ببيعة شرعية صحيحة، ولم يكن متغلباً ولم تصل إليه بالميراث الملكي كما آلت لعمر بن عبد العزيز رحمه الله.

ثالثاً: إذا كان عمر بن عبد العزيز قد استحق أن يقال عنه خليفة راشد لسيرته العادلة ولتأسيه بسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه رغم قصر خلافته. فإن عبد الله بن الزبير أولى إذ أن سيرته العادلة وزهده وجهاده قبل

---

[١] ابن حجر: فتح الباري ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤١٣هـ/١٩٩٢ ـ ج١٥ ص١٣٠

الخلافة وأثناءها لا يخفى على أحد من أهل الإسلام حتى خصومه الذين شهدوا له بذلك.

رابعاً: يجب ألا نتردد ونحن نكتب أو نقرأ سيرة عبد الله بن الزبير أن نضيف هذه الألقاب التي طمسها الإخباريون: أمير المؤمنين، الخليفة الراشد، بل والخليفة الشهيد رضي الله عنه. فقد حفظنا منذ الصغر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين جده لأمه عمر بن الخطاب لذلك سار على سيرته كل هذه الصفات لا اعتراض عليها فرحمة الله على عمر بن عبد العزيز الذي كان يسير على خطى الخلفاء الراشدين.

أما أن يقال إنه خامس الخلفاء الراشدين ويغض النظر عمن سبقه فهذا حيف تاريخي! بل وظلم للخليفة الراشد الحسن بن علي بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجور أيضاً على حق عبد الله بن الزبير هذا الخليفة المجاهد الراشد، فحيثية ابن الزبير التاريخية أولى من عمر بن عبد العزيز في استحقاقات هذا اللقب وبالأنساب فابن الزبير من سادة قريش؛ أبوه الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأمه أسماء بنت الصديق ذات النطاقين رضي الله عنها، وجده لأمه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وخالته عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدته لأبيه صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أول مولود ولد للمسلمين في المدينة حيث حنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بريقه الشريف. فجهاد ابن الزبير وبلاؤه وفتوحاته وفضله وتقواه وعدله وورعه متوافر رضي الله عنهم أجمعين.

وإزاء ذلك نرى أنه من المناسب أن يتسع مفهوم الخلافة الراشدة ليشمل

كل من يسير بالأمة سيرة الصديق والفاروق رضي الله عنهما لذلك نرى أن عبد الله بن الزبير خليفة راشد ويعد سادس الخلفاء الراشدين فيكون الترتيب كالآتي بعد الخلفاء الأربعة يكون الحسن بن علي رضي الله عنه خامس الخلفاء الراشدين، ويأتي: معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه السادس، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه سابعهم، أما عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فلا خلاف عليه في تعداده ضمن الخلفاء الراشدين ولكن الخلاف في ترتيبه لأن مفهوم الخلافة الراشدة قد يضم آخرين سبقوا عمر بن عبد العزيز وقد يكون لنا مع هذه القضية بحث آخر إن شاء الله.

هكذا نكون قد أنصفنا ابن الزبير رضي الله عنه.

وقبل أن نختم هذه الدراسة السريعة نود أن نضيف زيادة هامة تتمة لما قلناه إذ يعترض البعض إشكال أو يظن أن هناك تعارضاً بين حديث الإثني عشر خليفة المذكور بحديث «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا؟ ونجيب على هذا التعارض المزعوم بما قاله القاضي عياض نقلاً عن ابن حجر في الفتح: «وقد لخص القاضي عياض ذلك وقال توجه عليه هذا العدد سؤالان إحداهما أنه يعارضه ظاهراً قوله حديث سفينة الذي أخرجه أصحاب السنن وصححه ابن حبان وغيره «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا» لأن الثلاثين لم يكن فيها إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن بن علي. والثاني أنه ولي الخلافة أكثر من هذا العدد. قال: والجواب

عن الأول أنه أراد في حديث سفينة «خلافة على منهاج النبوة» ولم يقيده في حديث جابر بن سمرة بذلك. الثاني أنه لم يقل: «لا يلي إلا اثنا عشر» وإنما قال «يكون اثنا عشر» وقد ولي هذا العدد ولا يمنع ذلك الزيادة عليه. قال وهذا إن جعل اللفظ واقعاً على كل من ولي وألا يحتمل أن يكون المراد من يستحق الخلافة من أئمة العدل. وقد مضى منهم الخلفاء الأربعة. لا بد من تمام العدة قبل تمام الساعة»أهـ[١]

نستخلص من كلام القاضي عياض ما يلي:

لا تعارض بين حديث :» لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة» وبين حديث «الخلافة ثلاثون سنة ثم تكون ملكا: الحديث الأول عام يتكلم عن أئمة العدل وعمن يسيرون بين الناس بالعدل ويجتمع عليهم الناس في الأغلب. الحديث الثاني يتكلم عن حقبة معينة، وعن خلافة على منهاج النبوة وبالحساب الزمني تشكل هذه الفترة؛ الصديق والفاروق عثمان وعلي بن أبي طالب وتشمل الحسن بن علي أيضاً لأنه ورد في بعض الروايات

[١] ابن حجر: فتح الباري ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤١٣هـ/١٩٩٢ ـ ج١٥ ص١٢٦ وص١٢٧

«تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو لست وثلاثين». من منطوق ومفهوم الحديث الثاني: الخلافة بعدي ثلاثون سنة. لا تكون خلافة عبد الله بن الزبير ولا خلافة عمر بن عبد العزيز على منهاج النبوة لأنه لم تشملهما الفترة الزمنية. وممن منطوق ومفهوم الحديث الأول :»اثنا عشر خليفة» أي بالمعني الواسع فخلافة عبد الله بن الزبير خلافة راشدة ويلحق به عمر بن عبد العزيز ومن يسير على نفس الطريق. الخلافة على منهاج النبوة كخلافة الخلفاء الأربعة هي أنموذج صافي لكي تتأسى الأمة به منهم من يقترب من الأنموذج كخلافة عبد الله بن الزبير ومنهم من هو أقل كخلافة عمر بن عبد العزيز وكلاهما خلافة راشد. أما الأنموذج فهو نبراس لهذه الأمة مقياس للحكم على الولاة.

صفوة القول

بعد هذا التطواف حول سيرة الصحابي عبد الله بن الزبير والشبهات التي أثيرت حوله؛ يستبين لنا أن كتابة التاريخ الإسلامي في حاجة لإعادة النظر فهناك كم هائل من تلال الزيف، وكم فظيع من تحريف الكلام عن مواضعه.

هكذا استبان لنا شخصية عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين بدون دخن، سيرة واضحة جلية. فالخليفة عبد الله بن الزبير لم ينصفوه حياً وميتاً بل كنا نردد ما اخترعه الإخباريون القدماء دون روية وجاء إخباريو هذا الزمان فزادوا الطين بلة!وطفقوا يبنون أوهاماً من الدراسات والأبحاث وجل جعبتهم أخبار مدسوسة وروايات واهية، ومن ثم كانت النتيجة أننا نقرأ تاريخاً يحمل أخباراً متناقضة وقادة يحملون صفات متناقضة!. مما ساعد في اهتزاز صورة الجليل الأول وخلق حالة من الحيرة والريب لدى ضعاف النفوس والشعور بالحرج ونحن قرأ تاريخ سلفنا الصالح. هكذا نكون قد أنصفنا ابن الزبير وأعدنا الاعتبار لهذه الشخصية العظيمة ولا نزعم أننا نأتي بجديد ولكنها محاولة منا لوضع لبنة في صرح تاريخنا التليد ودعوة الغيورين من أبناء هذه الأمة لكي يعيدوا النظر في قراءة وكتابة التاريخ الإسلامي ورد الاعتبار لقادة المسلمين المفترى عليهم.

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نقول رضي الله عن الخليفة الراشد المجاهد الشهيد عبد الله بن الزبير الذي كان كثيراً ما يقول والله ما نموت إلا بأطرف الرماح أو تحت ظلال السيوف. وبالله التوفيق.


لندن
M
Al-Maqreze Center
For Historical Studies
مركز المقريزي للدراسات التاريخية

الفهرس